كيف أصبحوا عظماء

دراسات و رثاءات

الدكتور محمد الجوادى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

الإخراج الفنى :

مادلين أيوب فرج

تصميم الغلاف :

ماجدة عبد العليم

كيف أصبحوا عظماء

دراسات و رثاءات

الجوادى، محمد .
كيف أصبحوا عظماء: دراسات ورثاءات/ محمد الجوادى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.
٢٠٠ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك ٤ ١٦٦ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ مصر ـ تراجم .
(أ) ـ العنوان .
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٦٦٥٥/ ٢٠٠٧
I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 166 - 4
ديوى ٩٢٠

الإهداء

إلى العلامة الجليل والصديق الكريم

الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى

تحية لجهاده، ولتجويده وريادته

د. محمد الجوادى

هذا الكتاب

يتضمن هذا الكتاب مجموعتين من الفصول والدراسات عن شخصيات مصرية معاصرة.

وقد كُتبت هذه الدراسات بأساليب مختلفة من بناء الرثاء وزواياه، لكن روحها جميعاً تعبر عن معانى الحب والوفاء، وتقدير العطاء، وحب الاقتداء.

وقد ألقيت المجموعة الأولى منها (فصول الباب الأول) فى حفلات مجمع اللغة العربية التى انتدبنى فيها المجمع لإلقاء كلمة المجمع فى تأبين أعضائه.

وألقيت بعضها الآخر (فصول الباب الثانى) فى الاحتفالات السنوية المتتالية للجمعية الخيرية الإسلامية بروادها العظماء.

وقد رتبت الشخصيات فى كل باب من الأبواب تبعاً للترتيب الألفبائى. وأثبتُ خُطب التأبين على نحو ما ألقيت بمقدماتها، وأثبتُ خطب الندوات على نحو ما ألقيت أيضاً.

ومع أن هذه الفصول تعرض دراسات موسعة لأصحابها، فإنه يغلب على بعض فقراتها الطابع الخطابى، والطابع التقريرى، وهذا أمر طبيعى فى هذه المناسبات، لكن فصول هذا الكتاب لا تخلو من تصوير دقيق لحياة أصحابها، ومن عرضٍ أمينٍ لآرائهم وأفكارهم، ومن استيعاب متعمق لأعمالهم وأنشطتهم، ومن تحليل متكرر لجهودهم وإنجازاتهم.

وكلى أمل أن تحظى هذه المجموعة من الرثاءات بما حظيت به كتاباتى السابقات فى كتابىّ: «يرحمهم الله» و«مصريون معاصرون» من توفيق وود، وفى كتب التراجم والمذكرات الأخرى.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يرزقنى التوفيق والوفاء، وأن يديم علىّ نعمه، وأن يجزى الراحلين عنا خير الجزاء، وأن ينفعنا بما تركوه، وأن يخفف عنى آلام المرض والدواء، وأن يشفينى، ويعفو عنى، وأن يبدلنى من أمرى صحة وافية وقدرة، وأن يديم علىّ رحمته ومغفرته.

د. محمد الجوادى

الباب الأول

فى تأبين المجمعيين

- د. شفيق بلبع
- د. عبد الرازق عبد الفتاح
- د. محمد بلتاجى حسن
- د. محمد عماد الدين فضلى

د. شفيق بلبع

د. شفيق بلبع

سيدى الرئيس،

سيدى النائب،

سيدى الأمين،

الأساتذة الأعضاء،

السادة الضيوف:

جمعتنى بأستاذى الدكتور شفيق بلبع - عليه رحمة الله - صداقة نادرة توطدت طيلة عقدين من الزمان، وتوجت فى العام الأخير حين قدر له أن يعاود نشاطه فى هذا المجمع، وقد كنت قبل أن أحظى بشرف صداقته أنظر إليه كقمة عالية القامة، رفيعة الهامة، أعطت بسخاء، وضربت المثل فى السمو الخلقى، والعفة، والشجاعة، وكنت قد اكتشفت فى مرحلة مبكرة أنه - رحمه الله - كان من الذين يعاملون الجميع بأسلوب واحد هو أسلوب الندية الكاملة، وليس هذا

بالأمر الصعب على مَنْ يعتزون بأنفسهم فى مواجهة المتغطرسين مع احتفاظهم فى الوقت نفسه بالتواضع فى معاملتهم للذين يمشون على الأرض هونا، لكن المركب الوعر الذى تفوق فيه شفيق بلبع كان هو القدرة الفائقة على خلق الإحساس بهذه الندية عند الطرف الآخر، وهو مركب وعر كما تعلمون لكنه كان ينجزه فى ذكاء بالغ، مستعينا بثقافة عريضة، ومستزيدا من فلسفة عميقة. والحق أن هذا الخلق البارز فيه لم يصدر إلا عن شخص كانت له نفس الحرّ الأبى الذى لا يرضى بالضيم لنفسه ولا لغيره، ولم يصدر إلا عن شخص كانت له أيضا نزعة إنسانية تترفع عن الصغائر لكنها لا تكف عن الإلمام بالدقائق: دقائق الأمور، وتفصيلات الحياة. كان شفيق بلبع يشغل نفسه بهموم مساعديه مهما قل شأنهم، ومهما كانت هذه الهموم بعيدة عن منظوره، وكان فى لحظة واحدة قادراً على أن يضيف ما يسمع إلى ما عرف، وعلى أن يضيف ما عرف إلى ما يسمع؛ ذلك أنه كان يتعشق القراءة، ويحسن التفسير، ويتقن الاستحضار، ويجيد الاستبصار، وكانت قدرته على التعامل مع المواقف تنطق بالحكمة الموهوبة التى عرف صاحبها قدرها فنمّاها، وعرف موطنها فزكاها.

وإذا صح أن بعض الناس يتمثل فيهم العقار الشافى.. فقد كان شفيق بلبع من هؤلاء، وإذا كانت العقاقير نفسها تتفاضل بفعاليتها وبموثوقيتها وبمأمونيتها وباتساع نطاق تأثيرها.. فقد كان شفيق بلبع من أفضل العقاقير طرّاً، وإذا صح أن بعض العقاقير تكون علماً على ما تبعها ونهج نهجها.. فقد كان شفيق بلبع عقاراً عبقريا كما كان علما خفاقا فى دنيا العقاقير، كأنى أريد أن أقول إنه لم يكن عقاراً عبقريا فحسب ولا عقّاراً عبقرياً فحسب، بل كان أستاذاً للعقاقير، وعلماً على العقاقير، ورائداً للعقاقير، ومقيماً للعقاقير، ومكتشفاً للعقاقير.

ومن حسن الحظ أن الفرصة لهذا العقار النادر قد أتيحت ليكون لؤلؤة متفردة في جبين الجامعات ومؤسسات البحث العلمي، وليكون علماً هادياً في مجتمع الصيادلة، وإذا كان البقاء على القمة أصعب بكثير من الوصول إليها.. فبوسعكم أن تتصوروا هذا الرجل وقد جلس على القمة ثمانية وثلاثين عاماً متصلة، ترنو إليه الأفئدة قبل أن ترنو الأبصار، وتؤمن به العقول قبل أن تؤمن القلوب، وتتهيبه السلطة قبل أن يتهيبه العامة، وتتنازعه المحبة قبل أن تتنازعه المصلحة. وقد كنت على الدوام أطيل التأمل فيما كان وراء هذا النجاح كله، حتى أدركت أن نجاح شفيق بلبع كان محصلة للفطرة والسلوك معاً، وكان تعبيراً عن الإيمان والعلم معاً، وكان تجسيدا للريادة والقدرة معًا، وكان استشرافاً للمثالية والخلود معاً.

ولست أنكر أن كلينا مع الفارق بين قدرينا.. كنا متوافقين إلى أبعد حدود التوافق في رؤانا، ولم يكن لي أن أعجب من توافق آرائنا في سياسات التعليم الجامعي والعالي والبحث العلمي، لكني مع هذا كنت لا أفتأ أعجب من هذا التقدم الفكري الذي تميزت به رؤية هذا الرجل الذي لم تضعه مناصبه في أسر رؤى تحبذ ما هو كائن أو تبرر ما قد كان، وإنما كانت مواهبه تنتصر على مناصبه ومهامه لتجعله أمام عيني بل لتجعله في عيني ثورياً بأكثر مما كنت أتصور ثورياً من جيله.

❑

والحق أن الدكتور شفيق بلبع كان شخصية متميزة، نادرة، فقد جمع بين الذكاء والألمعية، وبين النشاط والجدية، وبين الفهم والتأني، وبين القدرة على القيادة، و القدرة على الإقناع. وكان ملتزما بكل القيم التي يجدر بالإنسان أن

يلتزم بها، وكان حريصا على كل سلوك حسن يحرص عليه الإنسان، وقد أفاد وطنه إفادات قصوى، وخدم قضايا العلم والطب والصحة والصيدلة والتعليم الجامعى والبحث العلمى وتاريخ العلم والسياسات القومية على مدى سنوات طوال، ولست أجد للتعبير عن هذا المعنى خيرا من شهادة أستاذنا الدكتور محمود حافظ فى استقباله فى هذا المجمع، من أن حياته العلمية التى امتدت أكثر من خمسين عامًا قد اتسمت بالخصوبة والنماء، والإنتاج العلمى الغزير، والخبرة الواسعة، مما هيأ له الريادة فى مجال تخصصه، وأسبغ عليه مكانة علمية بارزة على الصعيدين القومى والعالمى.

❑

أساتذتى الأجلاء:

على المستوى القومى كان للدكتور شفيق بلبع دور بارز فى ثلاث مؤسسات قومية، وقد وصل فى هذه المؤسسات الثلاث إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه عالم رائد من طبقته نشاطا وتوجيها.

أما المؤسسة الأولى فهى المجالس القومية المتخصصة، وقد اختير الدكتور شفيق بلبع عضوا بالمجلس القومى للتعليم الجامعى بالمجالس القومية المتخصصة عند نشأة هذه المجالس عام أربعة وسبعين، وسرعان ما اختير أمينا لشعبة التعليم الجامعى، ثم مقررا لها ليكون ثانى مقرر فى تاريخها بعد الدكتور محمد مرسى أحمد، وفى هذا المجلس تولى الدكتور بلبع الإشراف على إعداد وصياغة أكثر من ستين دراسة عن التعليم الجامعى والعالى فى مصر واتجاهاته تناولت نظم وسياسات واستراتيجيات التعليم الجامعى والعالى، وتطويره، ومعالجة مشكلاته بما يحقق له الارتقاء والتقدم لمواكبة متغيرات وتحديات العصر. ومن أبرز ما شارك فيه وراجعه من هذه الدراسات التى تم إقرارها من المجلس: سياسة التعليم

الجامعى فى مصر والاتجاهات العالمية المعاصرة، وأسس ومعايير إنشاء جامعات أهلية أو تعليم عالٍ خاص، وتقويم الأداء فى العملية التعليمية والبحثية فى الجامعات، والتعليم الجامعى والعالى: وظائفه وسياساته والتوزيع الجغرافى لخدماته، والأوضاع الأكاديمية بالجامعات وأساليب تطويرها، والتعليم الجامعى والعالى فى ضوء تحديات المستقبل، وتطوير منهجية التعليم الجامعى والعالى، وصيغ ونماذج جديدة للتعليم الجامعى والعالى، وتعظيم عائد مخرجات التعليم الجامعى والعالى فى المجتمع المعاصر، وتعظيم دور المكتبات ومراكز المعلومات فى الجامعات والمعاهد العليا.

❑

أما المؤسسة الثانية التى حظيت بنشاط الدكتور بلبع فكانت المجلس الأعلى للجامعات، وقد ظل المجلس ينظر إليه نظرة الابن إلى قلب الأب الحنون، بل نظرته إلى صدر الأم الرءوم، وظل الدكتور بلبع يؤدى للمجلس كثيرا من المهام الدائمة والمؤقتة حيث عمل رئيسا للجنة الفنية للمجلس، ورئيسا للجنة التنفيذية للبعثات، ورئيسا للجنة الثقافية والتبادل الثقافى بالمجلس الأعلى للجامعات. على أن الأهم من هذا أن عقليته المنظمة قد أهلته لكى يكون بمثابة اليد المحركة لسياسات هذا المجلس ولجانه الفنية على مدى سنوات طوال، من خلال منصب أمين المجلس الأعلى للجامعات، وقبل توليه هذا المنصب وبعد أن تركه إلى رئاسة جامعة المنصورة ووكالة مجلس الشورى، وبعد أن تقاعد أيضا، وقد كان الدكتور شفيق بلبع طيلة هذه الفترة رجل إنجاز صامت وهادئ. ومع أنه لم يكن فى كثير من الأحيان صاحب الدعوات ولا السياسات ولا الشعارات، إلا أنه كان بمثابة الرجل الذى حوّل كثيرا من الدعوات والسياسة والشعارات إلى واقع

ملموس من خلال جهد دءوب فى تأطير العلاقة بين الدولة والجامعة، وفى إضفاء روح واجدة على الكيانات الجامعية التى استقلت منذ بداية السبعينيات لتكون جامعات مستقلة فى طنطا، والمنصورة، والزقازيق، وحلوان، والمنيا، والقناة، والمنوفية؛ ولهذا فقد كان اختياره لرئاسة جامعة المنصورة خطوة موفقة استهدفت تقوية كيانات هذه الجامعة ونظمها والنهوض بها إلى مصاف شقيقتها الكبرى فى القاهرة التى ظلت مرتبطة بها حتى أتيح لها الاستقلال. وكان الدكتور شفيق بلبع ثانى رئيس لهذه الجامعة، وكان هو ورئيسها الأول الدكتور عبد المنعم البدراوى قد شغلا من قبل منصب العمادة فى الجامعة الأم.

❑

وأما المؤسسة الثالثة وهي أكاديمية البحث العلمى فقد كان الدكتور بلبع نائبا لرئيس مجلس البحوث الطبية بها، وتولى بصفة مستمرة الإسهام البارز فى تقييم مشروعات الأكاديمية وتوجيه لجانها القومية، وتطوير الأكاديمية، وقد كان عضوا بالشعبة القومية للكيمياء البحتة والتطبيقية، كما كان عضواً فى لجان منح جوائز الدولة، وإليه يرجع الفضل فى وضع كثير من النظم المعمول بها الآن فى منح هذه الجوائز.

أما على مستوى الجمعيات العلمية فقد كان الدكتور بلبع عضوا فى الأكاديمية المصرية للعلوم، وكان أحد الذين تولوا رئاستها، وهى رئاسة دورية، كما كان عضوا بالمجمع العلمى المصرى، وعضوا بالجمعية الكيميائية الأمريكية، وعضوا بالجمعية الأمريكية للنباتات الطبية والعقاقير، وعضوا بالاتحاد الدولى للصيدلة، وعضوا بالجمعية الأوروبية للنباتات الطبية، وعضوا بالجمعية الصيدلية المصرية، وقد توج هذا كله بانتخابه من أول ترشيح عضوا فى مجمع اللغة

العربية عام تسعة وتسعين ليكون ثانى صيدلانى فى تاريخ هذا المجمع. ومن الجدير بالذكر أن سلفه الدكتور عبد العظيم حفنى صابر كان أيضا سلفه فى عمادة الصيدلة.

وفى مجال تخصصه اختير الدكتور بلبع مستشاراً لمركز الأبحاث والرقابة الدوائية، ومستشاراً للنباتات الطبية والعطرية لوزارة الزراعة، وعضوا بالمجلس الأعلى لقطاع الدواء.

❑

أساتذتى الأجلاء

كان فهم شفيق بلبع لتكوين الأستاذ الجامعى القادر على البحث العلمى ينبئ عن سعة أفق امتزجت امتزاجا كاملاً بالحِرفية الفكرية على أعلى مستوياتها، وقد وصل فى تلخيصه وعرضه لمجموع المهارات المطلوبة فى الباحث إلى عبارات واضحة وضوح الشمس فى تعبيرها عن أفكار «ميكرسكوبية» أو «ميكروية» الطابع، وهو على سبيل المثال ينبه إلى أن إعداد الباحث العلمى لا يعتبر مكتملا إلا إذا اكتسب قدرا من المهارة فى عدد من التقنيات، من قبيل التعبير عن الأشياء بلغة الرموز، والقدرة على معالجة العلاقات القائمة فيما بينها، وصياغة ومعالجة الأفكار بلغة موضوعية، وتقييم مدى صحة هذه العمليات، ومعالجة البيانات، وفهم مدلولاتها، وتعميم التجارب فى صورة تؤدى إلى نتائج متميزة، ثم إجادة عرض الأعمال التى اضطلع بها الآخرون فى الماضى، وعرض العمل الذى يقوم به الباحث نفسه كجزء من عملية مستمرة تهدف إلى إثراء وتنمية المعرفة وتطبيقاتها، والقدرة على التعبير عن النفس بطلاقة، سواء عن طريق المحاضرات أو عن طريق الكتابة.

ولاشك أن شفيق بلبع كان من خيرة الذين اشتغلوا بالبحث العلمى فى مصر أداء وإدارة على حد سواء، وكان وعيه كاملا بالتطور المستمر فى هذه المهمة، وكان تعبيره عن هذا الوعى ناصعا ساطعا، وكان يفرق بين طائفتين من مهارات البحث العلمى: المهارات الفكرية، والمهارات التجريبية. فيما يتعلق بالأولى كان يرى أنه لابد للباحث من أن يكون على دراية كافية بالمجال الذى يبحث فيه فيما يتعلق بالوضع المعرفى الراهن، وبشىء من الوعى التاريخى بالمسارات التى أدت إلى هذا الوضع، وأن على الباحث عند تقييم هذه المعرفة أن ينمى فى نفسه ملكة وإحساسا، ملكة نقدية مرهفة، وإحساسا دقيقا بالقيمة، فليس كل ما ينشر متساويا فى قيمته، وكان يلفت النظر إلى مدى ما يمكن للباحث الناشئ أو المبتدئ من أن يفيد به من تكرار المناقشات مع أقرانه، وكذلك مع مشرفيه وأساتذته.

❑

ولهذا السبب فقد كان شفيق بلبع يدعو، فى مقام آخر، إلى تنمية فن الاتصال لدى الباحثين المبتدئين، عن طريق الحلقات الدراسية أو المحاضرات أو مراكز المعلومات، أو تقديم تقرير سنوى، أو بحث إلى جمعية أو مجلة علمية، وكان يقول إن مثل هذه الأنشطة تعاون الباحث على أن يتساءل عما إذا كان الآخرون سيسلمون بصحة نتائجها، وعما إذا كانت النتائج التى توصل إليها تؤدى بالفعل إلى إجابات مفيدة. وكان يرى أن المهارات التجريبية لا تقتصر على تعلم نظام المختبرات والقدرة على تقدير الدقة النسبية والألفة مع المواد والأجهزة ذات الصلة بعمل الباحث، والبراعة اليدوية فى تناولها بطريقة اقتصادية، وإنما تشمل كذلك المهارة فى تعميم التجارب العلمية وتنفيذ تجارب أكبر أو أدق، أو تجارب تتكون من سلسلة من التجارب تسهم نتائجها فى حل أسئلة أهم.

أساتذتى الأجلاء:

على نحو ما كان الدكتور بلبع واعيا كل الوعى لجوهر العلم ومكانة التجربة والبحث فيه، فقد كان واعياً لدور الكلمة فى التعبير عن العلم، وقد أبان بوضوح عن إيمانه باللغة ودورها الجوهرى فى كلمته فى حفل استقباله عضواً فى مجمع الخالدين حيث قال:

«إن المعرفة فى المجالات الطبيعية لاتصبح علما إلا إذا خضعت للوصف المدقق، والتعبير السليم، والقياس المحكم، وهل بدون الكلمة الصحيحة المختارة يمكن أن تُسجل معرفة ما، وأن تنقل من شخص إلى آخر أو من جيل إلى ما بعده من أجيال، لذلك فالمشتغلون بالعلوم الطبيعية حريصون كل الحرص على وزن اللفظ بأحكم الموازين لتطابق المعنى المنشود وتعريف الأشياء والأفعال بأوضح التعاريف، فلا يُطلق اللفظ إلا على معنى واحد و شىء واحد، فلا تلتبس المعانى، ولا تتداخل المفاهيم، فاللغة هى وعاء كل فكر، ومفتاح كل قول».

وقد كان عليه رحمة الله، واعيًا أشد الوعى لمكانة مجمع اللغة العربية ومعتزاً بها على نحو ما عبر فى حفل استقباله حين قال:

«إن مجمعكم ليس فقط للغويين والنحاة، بل هو أيضا مجمع الموسوعيين والثقات، جمع فأوعى فلا يعرف الفجوات».

❑

أساتذتى الأجلاء:

نشأ شفيق بلبع ودرس وابتعث وبحث فى الخارج فى ظل نظم جامعية راسخة تُعنَى بالمفاهيم الحقيقية للأداء الجامعى، ومن هذه المفاهيم مفهوم السلطة الرأسية التى كان شفيق بلبع مقتنعا تمام الاقتناع بدورها فى ترفيع مستوى

الأداء الجامعى، لهذا فإنه كان ينظر بامتعاض إلى ما نص عليه قانون الجامعات الحالى من نصوص متعددة أضعفت من هذه السلطة من قبل إنشاء منصب نائب رئيس مجلس القسم، وكانت وجهة نظره فى هذا أن مثل هذا المنصب وأمثاله يسبب إضعافًا لخطوط السلطة الإدارية الرأسية، وتقوية لخطوط السلطة الأفقية على حساب السلطة الطبيعية، وكان يرى السياسات الحالية لترقيات أعضاء هيئات التدريس فى هذا الإطار نفسه، وكان يرى أن تضخم عدد الأساتذة عند القمة قد أخل بالتركيب الهيكلى لهذه الأقسام، ووسم خطوط السلطة الرأسية بالضعف، وقلل كفاءة العملية الإدارية داخل الأقسام العلمية، فهبط مستوى الأداء، واهتزت السلوكيات.

وقد كان شفيق بلبع يعلى من قيمة عطاء عضو هيئة التدريس إلى حدود لم يسبقه إليها أحد من الذين شاركوه مسئولية التخطيط للتعليم الجامعى، وكان يصل فى هذا إلى حد القول بأن الحديث عن إنجازات الجامعات إنما يدور حول عطاء أعضاء هيئات التدريس بها، وكان يقول إنه لا كيان للجامعات بدون أستاذ الجامعة الكفء، فهو محور الارتكاز فى تحقيق أهدافها والركيزة الأساسية فى كفاءة أدائها.

وقد كان – عليه رحمة الله – يؤمن بضرورة أن تكون الجامعة إحدى أدوات تغيير ثقافة المجتمع إلى الأفضل، بل قيادة ثقافة المجتمع.

❏

وقد ظل شفيق بلبع يكرر الجهر بانتقاد ظاهرة جامعية خطرة بزغت.فى الستينيات واستشرت بعدها حتى بدا الأمر الآن كما لو أنها جزء أصيل من النظام الجامعى المصرى، وهى ظاهرة نظام الأجر الإضافى، وكان يرى هذه الظاهرة بمثابة أحد العوامل الرئيسية التى أثرت على كفاءة الجامعات المصرية، وكان يشير إلى أن منشأ هذه الظاهرة قد صاحب ظاهرة التزايد المفرط فى أعداد

طلاب الجامعة، وكان ينبه إلى ما لنظام الأجر الإضافى من تأثير سلبى على سلوكيات الجهاز الأكاديمى، وعلى مستوى الأداء، وعلى الاهتمام بالدراسات العليا والبحث العلمى، وعلى التأليف والنشر العلمى، بل على نوعيات الخريجين ومستوياتهم، وعلى كثير من التقاليد الجامعية الأصيلة، وما أدى إليه من ضعف قدرة الجامعات على إعداد وتنمية أعضاء هيئة التدريس.

❑

أساتذتى الأجلاء:

لا يمكن لنا فى هذا المقام أن نتجاوز الحديث عن فكر شفيق بلبع فيما يتصل بالإدارة الجامعية، والواقع أنه، بحكم ممارسته للإدارة الجامعية والتخطيط للتعليم الجامعى طيلة ثمانية وثلاثين عاما متصلة، كان ملماً كل الإلمام بتطور التشريعات التى حكمت أساليب إدارة الجامعة المصرية فى عصرها الحالى،وكانت له آراء واضحة تستشرف الصواب الممكن والفعالية المأمولة فى بعض هذه التشريعات، وتشيد ببعض هذه التشريعات التى كفلت تحقيق هدف نبيل، على حين تنتقد ـ وهذا طبيعى ـ بعضها الآخر.

وكان شفيق بلبع يكرر الحديث عن الإيجابية الكبرى فى قانونى تنظيم الجامعات الصادرين فى ١٩٥٤ و١٩٥٦ حين خُصصت لكل جامعة موازنة مستقلة وموحدة وجُعلت فى الموازنة العامة للدولة على هيئة «إعانة» من الحكومة، وقد شملت «الإعانة» أبواب الميزانية كلها، وكان هذا التوصيف كإعانة يعطى للجامعة الحق فى الاحتفاظ بما لا تنفقه فى سنة مالية ما، وترحيله إلى سنة مالية لاحقة، دون أن يُخصم ذلك من جملة الإعانة التى تخصصها لها الدولة فى السنة اللاحقة، وكان يرى أن هذا النص كان كفيلا بأن يتيح – وقد

أتاح – لكل جامعة فى ذلك الوقت الفرصة لتخطيط سياساتها على المدى البعيد، وإقامة مشروعاتها الإنشائية الكبيرة، واستخدام مواردها المالية الاستخدام الأمثل، كما أدى ذلك أيضا إلى ترشيد نفقاتها.

وكان يدعو إلى ضرورة إتاحة الحرية الكاملة للجامعة فى التصرف فى الموازنة التى تخصص لها مع استثنائها من جميع الإجراءات التى تعوق انطلاقها.

ولهذا فإنه كان ينتقد ما أخذت به قوانين الجامعات المتتالية التى صدرت منذ ١٩٥٨ من العدول عن نظام الإعانة السنوية الذى كان مطبقا من قبل إلى مبدأ تخصيص ميزانية مستقلة لكل جامعة تتصرف فيها فى حدود أبوابها المختلفة، وكان يرى أن هذا النظام قد أدى إلى إضعاف قدرة الجامعات على تنفيذ خططها ومشروعاتها وإنشاءاتها ومرافقها فى المواعيد المناسبة، مما أثر سلبيا على كفاءة الأداء بها، وذلك على الرغم من إدخال بعض التوسعات فى السلطات المالية للقيادات الجامعية ومنحها حرية أكبر فى الحركة والتصرف.

❑

أساتذتى الأجلاء:

لم يكن شفيق بلبع ينظر إلى الجامعة ككيان مستقل عن المجتمع، بل إنه كان من أشد المؤمنين بالوظيفة الثالثة لعضو هيئة التدريس فى خدمة المجتمع من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه كان يؤمن بأن تقييم أعضاء هيئة التدريس لابد أن يرتبط ارتباطا وثيقا بالعقبات والمشكلات التى تحد من عطائهم، ولهذا فإنه كان يرى ضرورة العمل على إزالة هذه العقبات، وكان يرى هذا بمثابة خطوة

حتمية قبل الحديث عن سياسات التقييم أو الترقيات، وكان يرى ضرورة توفير المناخ الملائم لعضو هيئة التدريس كى يبدع ويسمو ويجود بنتاجه الفكرى والذهنى، وكان يلخص المناخ الملائم فى ثلاث كلمات أو ثلاثة عناصر أساسية هى: الحرية، والوقت، والمال.

ولم يكن شفيق بلبع يقصد بالمجتمع المجتمع المحلى أو القومى فحسب، لكنه كان يؤمن بأنه يتحتم علينا أن نحافظ على قنوات الاتصال بالعلم العالمى مفتوحة جارية. بل إن شفيق بلبع كان فى إطار إيمانه بهذه الوظيفة ينبه إلى «الوظيفة الاتصالية» ضمن وظائف المشتغلين بالعلم، وكان يرى أن هذه الوظيفة تتطلب ضرورة الاتصال بغير المشتغلين بالعلم، وكان ينبه إلى أن تبسيط العلم قد حظى فى المجتمعات المتقدمة بمكانة بارزة منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر، ولا تزال هذه المكانة تزدهر حتى اليوم فى وسائل الإعلام ومراكز المعلومات والمجلات العلمية.

❑

والحق أن شفيق بلبع كان ينظر إلى استقلال الجامعات من زاوية وطنية الهدف، ووطنية الطابع، وكان يعبر عن هذا بأنه على الرغم من ضرورة تمتع الجامعات بالاستقلال الذاتى، وإدارة شئونها بنفسها، فإنه لابد من توافر قدر كبير من التنسيق بينها، وأنه لابد من تخطيط ما للتعليم الجامعى على المستوى القومى، وكان لا يتصور أن تعمل الجامعات فى مصر فى غياب مثل هذا التخطيط.

ومع أن شفيق بلبع عُنى عناية متصلة بدراسة سياسات القبول فى الجامعات، فقد كان نتيجة لما تميزت به شخصيته من حب للعدالة وتكافؤ الفرص من أشد

المدافعين عن وجهة النظر القائلة بأفضلية الأسلوب المتبع في تنسيق القبول للالتحاق بالجامعات بالرغم من عيوبه، وكان يشير إلى أن هذا النظام يوفر الوقت والجهد الذى يبذله الطلاب فى الالتحاق بالكليات، وكان ينبهنا إلى أن كثيراً من الدول قد أخذت بمثل هذا الأسلوب.

أساتذتى الأجلاء:

كان شفيق بلبع ينتقد الهيكل الجامعى المصرى الحالى الذى اكتفى بثلاث عشرة جامعة وأنشأ إلى جوارها نحو عشرين كيانا جامعيا من الكليات والأقسام العلمية الصغيرة، موزعة فى المناطق الريفية المصرية، وكان يرى أن هذه الكيانات الجامعية تمثل مراكز صغيرة لا تستطيع الاهتمام بدرجة مُرضِية بشئون المجتمع المصرى والبيئة المصرية، وكان يقارن هذا الوضع بما أمكن تحقيقه فى مجموع البلاد العربية الشقيقة ويعترف أن هذه الدول الشقيقة قد تفوقت فى هذه الناحية.

وكان شفيق بلبع يرى أن من واجبنا أن نُعدِّل من نظامنا الحالى فى الاكتفاء بكليات صغيرة أو أقسام علمية محدودة النشاط لا تستطيع أن تنهض بواجبات الجامعات المتكاملة، لأن هذا الوضع يصعب أن يكفى احتياجاتنا، ولابد من أن نعدل عنه لأنه لا يمكن أن يعوضنا عن نظام الجامعات الكبيرة المتكاملة التى نحتاج منها إلى نحو ثلاثين جامعةٍ موزعة على المحافظات المختلفة.

وفى هذا الإطار ـ وبصورة عملية ـ كان شفيق بلبع ينادى بدعم الفروع التى سيتم استقلالها فى المرحلة الأولى ببعض الكليات الجديدة، وفقا للاحتياجات الإقليمية العلمية والتنموية والثقافية، وإنشاء كليات جامعية جديدة إضافة للكليات

القائمة التى تتبع مستقبلا بعض الجامعات فى بعض المحافظات، مثل دمياط، وأسوان، والسويس.

وكان ينادى بتيسير تحويل الطالب من تخصص إلى آخر دون أن يفقد جزءا كبيرا مما درسه، وذلك عن طريق تكويد المقررات واعتمادها، والعمل على تطبيق النظم التى تتيح للطالب اختيار المواد والتخصصات، مثل نظام الساعات المعتمدة، وذلك فى الكليات التى تسمح إمكاناتها بذلك.

أساتذتى الأجلاء:

كان أستاذى الدكتور شفيق بلبع منتبها إلى الثورة التى شهدتها أنظمة التعليم فى عالمنا المعاصر، وكان سباقا فى دعوته إلى دراسة استخدام إمكانات شبكات المعلومات فى دعم عمليات التعليم والتعلم، وكان يدعو إلى التركيز على ما يسمى بالتعليم النشيط، الذى يتمثل محوره الأساسى فى إتاحة قدر أكبر من التفاعل بين الطالب والبرامج التعليمية عن طريق عرضها بشكل أفضل يدعو إلى مشاركة فعالة بينهما، وذلك باستخدام الوسائط المتعددة التى تتيح أكبر قدر من الاستفادة، وكان يضرب المثل على هذا بالتعلم المبنى على المحاكاة والمشاركة الفعلية، والتعلم العرضى، والتعلم بالتفكير الذاتى، والتعلم عن طريق النماذج أو الحالات أو الاستكشاف.. إلخ،

ولهذا كان شفيق بلبع يدعو زملاءه ولاحقيه إلى التطلع إلى استحداث أنماط جديدة من التعليم الجامعى المصرى كالجامعات المتخصصة التى تتخصص كل منها فى فرع واسع من فروع المعرفة، وإلى استحداث البدائل الكفيلة بإتاحة الفرصة للراغبين فى مواصلة تعليمهم، وكان يؤكد على أن بعض هذه الطرق قد تم تطبيقه بنجاح فى العديد من دول العالم.

وفى هذا الإطار ظل شفيق بلبع على الدوام من المطالبين بإعادة النظر فى سياسات قبول طلاب برامج التعليم المفتوح التى استحدثت فى بعض الجامعات المصرية، وإلغاء الشرط الخاص بمضى خمس سنوات على حصولهم على الثانوية العامة، فقد يكون فى ذلك تخفيفا عن كاهل الجامعات ذات الأعداد الكبيرة، ورفعا لكفاءة الأداء بها.

أساتذتى الأجلاء:

أستأذنكم فى أن أعود بكم إلى ما كان ينبغى أن أبدأ به من تصوير التكوين العلمى لفقيدنا العظيم.

تمتع الدكتور شفيق بلبع بتأهيل علمى مزدوج، حيث درس الزراعة وأتم دراستها قبل أن يدرس الصيدلة ويتفوق فيها، وقد مكنته هذه القاعدة العلمية الواسعة من أن يكون مبرزا تمام التبريز فى العلم الذى أفنى حياته فيه وهو «علم العقاقير»، وقد أضفى علمه الواسع العميق على بحوثه الرائدة روحا من القدرة على استخلاص أقصى ما يمكن من نفع من كل نبات طبى، وامتدت آفاق علمه لتشمل معرفة واعية بالتراث العلمى الصيدلى، وبالكيمياء التحليلية والصيدلية والعضوية والحيوية.

وبعد أن حصل على بكالوريوس الزراعة (١٩٤٢) وعلى بكالوريوس الصيدلة (١٩٤٦)، وعلى الماجستير فى علم العقاقير (١٩٥٠)، سافر فى بعثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة بجامعة فلوريدا، وفيها حصل على درجة دكتوراه الفلسفة فى علم العقاقير (١٩٥٣)، وقد قدرته أمريكا فى فترة دراسته العليا حيث نال جائزة نيوكومب التذكارية لأحسن بحث فى العقاقير على

مستوى الولايات المتحدة الأمريكية (١٩٥٤)، وعمل الدكتور شفيق بلبع فى هيئة التدريس فى كليته حتى نال درجة أستاذ كرسى كيمياء العقاقير عام أربعة وستين، بعد ثمانية عشر عاما من تخرجه فى كلية الصيدلة، وبعدها بعامين فقط اختير عميدا للكلية، وشغل هذا المنصب ست سنوات متصلة، ثم اختير أمينا للمجلس الأعلى للجامعات لِستّ سنوات متصلة أخرى، واختتم حياته الوظيفية برئاسة جامعة المنصورة لمدة عامين.

نشر الدكتور شفيق بلبع مائة وستين بحثا علميا فى مجال العقاقير والنباتات الطبية، فى أكبر المجالات العلمية المتخصصة المصرية والعالمية، وقد نجح فى فصل المكونات الفعالة من بعض النباتات فى صورة نقية من أجل استخدامها فى العلاج، كما تمكن من استحداث طرق جديدة ودقيقة مبتكرة لتقويم المكونات الفعالة فى عدد من النباتات الطبية والعطرية، كما أدخل زراعة أكثر من خمسة وعشرين نوعا من النباتات الطبية والعطرية فى مصر لأول مرة بعدها استجلبها من الخارج وتأقلمت فى البيئة المصرية. كما شملت دراسته وبحوثه ما يزيد على ثمانين نوعا من النباتات الطبية والعطرية التى تنمو بريًا فى مصر، وقد ركز اهتمامه على نحو ما ذكر الأستاذ الدكتور محمود حافظ فى استقباله له فى هذا المجمع، على النباتات ذات الفائدة الاقتصادية مثل السكران المصرى، وحشيشة الليمون، والبلادونا، والداتورة، وحلف البر، والخلة، والشطة، والنعناع، وزيوت الموالح، والبيروثروم، والبلانتاجو وغيرها.

وأسهم الدكتور شفيق بلبع فى إنشاء أول محطة تجارب عربية نموذجية للنباتات الطبية والعطرية، وقد أشرف على تجهيزها تجهيزا متميزا لإجراء الدراسات والبحوث العلمية والحقلية فى هذا المجال. وكذلك أسهم فى إنشاء

معشبة للنباتات الطبية والعطرية لضم الأنواع المختلفة التى تنمو فى مصر بريا، أو التى جرى إدخالها وزراعتها وأقلمتها فى مصر. وأسهم الدكتور شفيق بلبع كذلك فى إقامة نظام يكفل تبادل المعلومات عن النباتات الطبية والعطرية وبذورها مع محطات ومراكز بحثية تعمل فى هذا المجال خارج مصر.

وقد امتد نشاطه الأكاديمى إلى كليات الصيدلة المصرية المختلفة، فأشرف على إنشاء قسم العقاقير والنباتات العطرية فى شعبة الصيدلة بكلية الطب جامعة المنصورة، وإليه يرجع الفضل فى إنشاء كلية الصيدلة بالمنصورة، التى بدأت كشعبة من كلية الصيدلة الأم فى القاهرة. وإليه يرجع الفضل أيضًا فى إنشاء شعبة للصيدلة وإقامة قسم للعقاقير والنباتات الطبية بجامعة الأزهر.

❑

وللدكتور شفيق بلبع عدة مؤلفات صيدلية من أهمها: «مكونات النباتات الطبية»، و«كيمياء العقاقير» (باللغة الإنجليزية)، و«النباتات الطبية والعطرية». وله من المؤلفات التربوية: «التعليم الجامعى وسوق العمل فى مصر». وله من المؤلفات فى تاريخ العلم: «تاريخ العلوم الصيدلية»، فضلا عن إسهاماته المتميزة فى كثير من الموسوعات، وقد كان لى شرف الاشتراك معه فى عدد منها.

وقد نال الدكتور بلبع كثيرا من التقدير اللائق به فى وطنه، فقد كان واحدا من الذين آلت إليهم رئاسة الأكاديمية المصرية للعلوم، وقد نال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم (١٩٨٢)، وكان أول من نالها بين أساتذة كليات الصيدلية. وحصل على وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى (١٩٨٣)، ومن قبله حصل علي وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى (١٩٧٨)، وعلى الميدالية الذهبية لأحسن بحث فى العقاقير (١٩٧٢) من اتحاد الصيادلة العرب.

أساتذتى الأجلاء:

لعلى أختتم حديثى ببعض ما أشرت إليه فى مطلع كلمتى من أن شفيق بلبع كان علما خفاقا فى دنيا العقاقير، كان عقاراً عبقريا وكان عقَّاراً عبقرياً، كان أستاذاً للعقاقير، وعلماً على العقاقير، ورائداً للعقاقير، ومقيمًا للعقاقير، ومكتشفاً للعقاقير. وقد جلس على القمة ثمانية وثلاثين عامًا متصلة، ترنو إليه الأفئدة قبل أن ترنو الأبصار، وتؤمن به العقول قبل أن تؤمن القلوب، وتتهيبه السلطة قبل أن يتهيبه العامة، وتتنازعه المحبة قبل أن تتنازعه المصلحة.

وقد كان نجاحه محصلة للفطرة والسلوك معاً، وكان تعبيراً عن الإيمان والعلم معاً، وكان تجسيدا للريادة والقدرة معاً، وكان استشرافاً للمثالية والخلود معاً.

د. عبدالرازق عبدالفتاح

سيدى الرئيس ،

سيدى النائب ،

سيدى الأمين ،

الأساتذة الأعضاء ،

السادة الضيوف :

كانت للدكتور عبد الرازق عبد الفتاح شخصيةً فذة، قوية، منتجة، مرشدة، فارقةً بين الحق والباطل، وكان أعظم قيادات الجامعة قدرة على الفصل بين الصواب والخطأ، وبين الجد والهزل، وبين القيمة والتفاهة، وقد أتيح لوطنه أن يفيد منه إفاداتٍ قصوى ندر أن أتيحت لوطنه من أحد من أقرانه من العلماء فى جيله. كان ذا ذكاء حاد، وإدراك وقّادٍ، على أنه رُزِقَ فوق الذكاء الحاد وفوق الإدراك الوقاد وفوق العمل الجاد بصَيرةَ العباقرة التى هيأت له محلا رفيعا فى الوجدان وفى الأذهان على حدٍ سواء.

كان عبد الرازق عبد الفتاحِ نموذجا للمهندس الذى امتزجت الهندسة بدمه وبدنه وأعصابه وحركاته وسكناته، حتى ليسهل على الرائى أن يكتشف مهنته بعد دقائق قليلة من اللقاء به أو الاستماع إليه أو القراءة له. كان مهندسَ الفكر، وكان مهندِساً للفكر، وكان مهندَس اللفظ وكان مهندساً للفظ، وكان مهندَس اللغة وكان مهندِساً للغة، وكان مهندَس الحوار، وكان مهندِساً للحوار.

وعلى الرغم من أن عبد الرازق عبد الفتاح كان صاحبَ منهج واضح، وصاحب رؤية متفردة، فإنه كان يجمع بين كثير من ملامح أنماط التفكير الرئيسية التى كان يجيد وصفها على نحو ما سنرى ونحن نتدارس ملامح فكره التعليمى والجامعى، ومن الحق أنه كانت تغلب عليه فى إنجازاته نزعةُ التفكير الخلاق، إلا أنه كان فى أدائه مثالىَّ النزعة، وكان فى رياسته عملىَّ الوظيفة، وكان فى أحكامه النقدية تحليلىَّ التقييم، وكان فى رؤيته لوطنه ومؤسساته واقعىَّ التقدير.. وأظنه كان يعرف فى نفسه كلَّ هذه الصفات، وإنى لأذكر له موقفًا حضرته منذ أكثر من ربع قرن فإذا به الأسد الهصور الذى أنقذ اجتماعا علميا من جدل كان كفيلا بإفساد الجلسة كلها، فإذا به ينقذ الموقف فى دقيقة واحدة معتمداً على قدرة نفسية هائلة على الحسم والحزم، ولا أظننى وجدت فيمن شهدهم جيلى مَنْ كان حاسما حازما وهادئا هاديا مثله. والحق أنه كان حاسما حازما بقدر ما كان حازما حاسما، ولعله كان أقرب الناس إلى طبيعة مشرط الليزر الضوئى القاطع فى كل الأحوال وعلى كل المستويات.

كان تعليمه عاليا وكان تعلمه متميزا بحيث حفظ عليه القدرة المتصلة على الاطلاع والمتابعة، وكان يدرك تطورات الهندسة الحديثة فى يسر، لأنه كان قد أدرك جوهرها فى تأنٍّ وثقةٍ وتعمق، وكان قادرا على أن يتنبأ بمستقبل التكنولوچيا فى ضوء الاختراعات والتطويرات، وكان قادراً على أن يصوغ كل

هذه الجواهر فى عبارات واضحة فصيحة مفهمة، وكان قادراً على أن يختار لكل جديد من التكنولوجيا اللفظ أو المصطلح القادر على التعبير عنه بدقة متناهية، وكانت المصطلحات التى وضعها أو اشترك فى وضعها فى علوم الهندسة والتكنولوجيا والحاسبات كفيلةً بأن تهدى أمثالى من أساتذة الطب إذا ما اضطروا إلى التفريق بين ما يظنه بعضهم مترادفات، ولازلت أذكر أنى أفدت من فهمه فى تفريقى بين كثير من مصطلحات الفيزيقا التطبيقية التى لايزال بعضنا يخلط بينها فى طب القلب، ولم يحقق عبد الرازق هذا النبوغ المعجمى من فراغ، وإنما لأنه كان أقدرَ الناس على التمييز بين الفعل ورد الفعل، وعلى التمييز بين السبب والنتيجة، وعلى التمييز بين الدافع والمساعد، مع ما يكتنف كل هذه التميزات من صعوبات بالغة، لكنه كان يتوسل إلى هذا كله بما حباه الله به واختصه به من علم غزير، وخبرة واسعة، وعقلية ناقدة، ونظرة نافذة، وانحياز إلى الحقيقة وشغف بها، وكانت حظوظه من كل هذه الصفات الرفيعة وافرة بفضل الله الذى حفظها عليه حتى لقى وجه ربه الكريم.

وقد وصفه أستاذنا الدكتور محمود حافظ عند استقباله له فى هذا المجمع بأنه عالم جليل من خيرة علمائنا ومهندسينا البارزين، أسهم فى بناء النهضة العلمية والتعليمية فى مصر، كما أشار إلى أن له فى حياتنا الجامعية إنجازات يعتد بها ستظل شاخصة تشهد بعلمه وخبرته الواسعة.

❑

أساتذتى الأجلاء:

كان أستاذنا من شيوخ الصناعة الذين لا ترُد كلمتهم، وكان من شيوخ العلم الذين أحاطوا بتفصيلاته، وكان من الأساتذة الذين يبدو أنهم لا ينطقون إلا بالصواب، ومع كل هذا كانت له شخصية علمية باحثة لا تكف عن مراجعة

نفسـا من أجل الحق فإذا ما أدركتْه أمسكتْ به، وعدلت عما قبله، ولم يكن من هواة إمساك العصا من الوسط، ولا من المضطرين إلى هذا.

كان صاحبَ الفضل فى ظهور رابع جامعات مدينة القاهرة: وهي جامعة حلوان على نحو ما ظهرت عليه، وقد منحها خلاصةَ نفسه وعقله من قبل أن تنشأ، فلما نشأت، كان من الطبيعى أن يكون هو رئيسَها الأول، ومن خلال رئاسته لها استطاع فى عبقرية نادرة أن يضفى الروح الجامعية على مجموعة كلياتها ومعاهدها التى كانت منتشرة أو متناثرة فى مواقع عديدة فى القاهرة وفى الإسكندرية كذلك، وبفضل شخصيته الرائدة تمكن عبد الرازق عبد الفتاح من أن يقدم لوطنه جامعة تفخر مصر اليوم بها، وقد سخّر ذكاءه لاكتشاف الكفايات فى كل المجالات الجامعية وتشجيعها ودفعها للأمام، وليس أدلّ على نجاحه من أن هذه الجامعة قدمت للوطن على مدى ربع قرن كفايات لا يستهان بها فى مجالات عديدة، وقد توجت هذا قبيل رحيل عبد الرازق عبد الفتاح باختيار رئيسها وزيرا للتعليم العالى، وباختيار أمين المجلس الأعلى للجامعات مرة بعد أخرى من عمدائها، ولا يمكن القول بأن هذا قد تحقق من قبيل المصادفة، إلا إذا صدقنا أن المحاصيل المتميزة التى نحصدها فى نهاية الموسم تنمو بالمصادفة دون انتقاء للبذور ورعاية لها.

وسيذكر التاريخ الوطنى أن عبد الرازق عبد الفتاح قد أنجز ما أنجزه فى جامعة حلوان فى ظروفٍ وسنواتٍ اقتصادية صعبة، كان ارتفاع معدلات التضخم فيها كفيلا بأن يوقف نمو المجتمعات الجامعية، وبأن يحول دون نشأة كيانات جامعية جديدة، وبأن يعوق استمرار أعضاء هيئة التدريس فى مواقعهم داخل مصر، بل أن يقلل من عطاء الباقين داخل حرم الجامعة، لكن فقيدنا تغلب على هذا كله بعدد من الآليات الذكية كانت فى مقدمتها القدوةُ الناصعة التى

قدمها فى جديته وتفانيه، وتواصل جهده، وتجرده لعمله، وانصرافه عما ينزلق إليه كثيرون من أن يوظفوا مناصبهم لفوائد شخصية، أو لعوائد ذاتية، ومن أن ينشغلوا بقضايا فرعية، أو خصومات قديمة، أو أغراض قصيرة النظر، أو تحالفات مشبوهة الغرض.

والحق أن عبد الرازق عبد الفتاح نجا من هذا كله لأنه كان يعرف قيمة نفسه، وقيمة دوره فى هذه الحياة الدنيا القصيرة، وقد نجح فقيدنا العظيم فى أن يصنع من الإنجازات الحقيقية ما جعله فى جامعته لا يقل قيمة ولا إنجازا ولا ذكرى عمن سبقوه إلى تأسيس الجامعات: لطفى السيد، وطه حسين، ومحمد كامل حسين، والباقورى، وسليمان حزين، وقد لحق بهم جميعا فى عضوية مجمع الخالدين، على الرغم من أنه كان من جيل تال لهؤلاء جميعًا، وعلى الرغم من أنه أدى وظيفته فى زمن تال لهؤلاء جميعًا حين كانت الدولة والمجتمع معا قد شغلا تماما عن دعمه بما ينبغى أن تلقاه المؤسسات العلمية الجامعية من دعم. وكنت أقول له إنه يمثل المعلم التكنولوجى الأول فى تاريخنا الجامعى فكان يبتسم ابتسامة الواثق المتواضع الذى يعرف لأسلافه قيمتهم.

❑

أساتذتى الأجلاء:

كان عبد الرازق عبد الفتاح بين المجمعيين طرازا فريدا متفردا، ولعله وهو الذى انتخب لعضوية مجمعنا هذا عام ثمانية وثمانين وتسعمائة وألف كان بمثابة النموذج المبكر للعلماء الذين سيبدأ وصولهم إلى عضوية مجمعنا هذا فى ربع القرن القادم، ذلك أن عبد الرازق عبد الفتاح دخل هذا المجمع من باب تفوقه الساحق فى علوم الهندسة، وقدرته على صياغة المفاهيم والمعانى الهندسية والتعبير عنها بألفاظ دقيقة مبتكرة من وحى الهندسة وحدها، ولم يكن

عند ترشيحه للانضمام إلى ركب الخالدين قد عُرف بإبداع فى الأدب، ولا تمرسٍ بالكتابة، ولا تحليقٍ فى الشعر، ولا تبحرٍ فى اللغة، ولا استيعابٍ لمتونها، وهى الصفات التى أضفت على أصحابها من العلميين الذين سبقوه إلى عضوية المجمع طابعا مهيئا للمجمعية، لكنه جاء إلى هذا المجمع وفاز بعضويته فى انتخابات لم يفز فيها غيره من باب عظمته المتناهية فى الهندسة، وسرعان ما ضَرب عالمنا المثل فى طراز جديد من المجمعية الرائدة المتبحرة إلى أبعد الحدود، ولم تكن قدراته اللغوية تقف عند حد على الرغم من صعوبة تصورنا لحدودها المذهلة، ذلك أنه كان يدرك لُبَّ الحقيقة معتمدا على سعة أفق لا نظير لها، وقد أثبت بما أنجز أروع دليل على وحدة المعرفة، وعلى قدرة المخ البشرى الجبارة، ذلك أنه فيما وضع وما عدّل وما ضبط وما راجع وما نقح من مصطلحات انطلق من لغة هندسية فرضت نفسها على الصرف، فإذا بها تصل إلى الصواب الصرفى، وفرضت نفسها على متن اللغة، فإذا بها تصل إلى الصواب فى متن اللغة أيضا، وفرضت نفسها على بنية الجملة والعبارة، فإذا بها تصل إلى الصواب فى البنية والبناء والبنيان أيضا.

وقد تم هذا الإنجاز كله مع أن عبد الرازق عبد الفتاح كما قلنا لم يمارس الشعر ولا الزجل ولا القصة ولا الرواية ولا الكتابة الأدبية، إلا أنه مارس العلم والترجمة والتدريس والتصميم والتخطيط والكتابة العلمية على نحو دقيق كان كفيلا بأن يرتفع بمستوى بيانه إلى حدود قصوى. والحق أن هذا الارتفاع كان على مستوى اللفظ وفصاحته، - والجملة وبلاغتها، والنص وفنّيته. وإذا كان البلاغيون قد قسّموا علومها منذ الزمن المبكر إلى المعانى، والبيان، والبديع، فقد كان تفوق عبد الرازق عبد الفتاح فى بلاغة البيان راجعا إلى تفوقه فى بلاغة المعانى. ومن العجيب أن بلاغة البيان وبلاغة المعانى قد مكنتاه تلقائيا من

بلاغة بديعية رائعة استقت رحيقها مما تدلنا عليه الهندسة نفسها من تقابل الأضداد، وطباق الوجوه، وجناس المكونات، وسجع الآلة، ولف المحركات ونشرها، ذلك أنه وظّف المعانى من أجل التعبير عن نفسها فإذا به يصل إلى نمط جديد من البيان الدقيق المعبر.

أساتذتى الأجلاء:

كانت عبقرية عبد الرازق عبد الفتاح نموذجا لعبقرية المهندس على ما يجب أن تكون، فبالإضافة إلى كونه مهندسا عظيما فإنه كان من أشد المهندسين عناية بالعلم الأساسى، وكان كذلك من أكثر المهندسين تبشيرا بالتكنولوجيا، بل لعله كان عميد المبشرين بها، وقد كان يتبنى التعريف الدقيق للهندسة على أنها التطبيق الابتكارى لمبادئ العلوم الأساسية (الرياضيات ، الفيزيقا ، الكيمياء)، وكان يلفت نظرنا إلى أن هذا التعريف يعنى أن الهندسة تبدأ بفكرة مستندة إلى مبادئ العلم وصولا إلى منتج،و تتضمن التصميم واختيار المواد لإنتاج منتج يؤدى وظيفة معينة، أى أنها تمضى من الفكرة إلى المنتج. وكان يفرق بين الهندسة والهندسة العكسية مع اعترافه بهذه الأخيرة، بل إنه كان مبشراً بها فى سياق تبشيره بالتكنولوجيا، وكان يعرفها على أنها اختيار سلعة معينة ودراسة أدائها ووظيفتها، ودراسة التصميم والأحمال والمواد المصنوعة منها تلك السلعة، ووضع أسلوب وطريقة التصنيع، أى أنها أسلوب للوصول إلى المنتج من منتج آخر.

وكان رحمه الله ينبهنا إلى حقيقة أن الهندسة العكسية تمثل أسلوبا مختصرا للتنمية، كما كان ينبهنا إلى أن هذا الأسلوب قد يمثل البديل المتاح أمام مجتمعات نامية كمجتمعنا إلى أن يتم رفع القدرة الذاتية لأفراد الكادر الإنتاجى ليتمكن بذاته من توليد تكنولوجيا جديدة بزيادة قدرة أفراده الابتكارية مع توافر ظروف أخرى.

ومع هذا فقد كان عبد الرازق عبد الفتاح يؤكد على الدور الرئيسى الذى يلعبه نظام التعليم فى إعداد الإخصائيين اللازمين لأى من المراحل التى تتطلبها الهندسة العكسية، ويحلل عبد الرازق عبد الفتاح خطوات الهندسة العكسية إلى سبع عشرة خطوة، وكأنه يريد أن ينبه مجتمعنا إلى أن التقليد نفسه من الأمور التى تتطلب هندسة وبروتوكولات، وهو لهذا يوصى بالتطبيق التدريجى البطىء لبعض الأجزاء ثم المكونات قبل الدخول إلى المنظومات المتكاملة، كما يوصى بالبدء بتدريب أفراد الكادر الفنى، وإتاحة المواصفات القياسية وأسس التصميم والتنفيذ فى كل مؤسسات التعليم والإنتاج، ووضع التشريعات التى تحفز اللجوء إلى أسلوب الهندسة العكسية كبديل للتراخيص، وكذلك فك الحزمة التكنولوجية.

❑

أساتذتى الأجلاء:

شغل الدكتور عبد الرازق عبد الفتاح منصب رئيس قطاع الدراسات الهندسية فى المجلس الأعلى للجامعات، وقد أفاد هذا القطاع من علمه الغزير فى وضع ملامح تطوير التعليم الهندسى فى الحقبة القادمة، ويصعب علىّ أن ألخص أفكارا عميقة الفهم تقدم بها عالمنا الجليل لصياغة تصورات الجامعات نحو تطوير مناهجها فى إعداد مستقبل خريجيها، لكنى لا أستطيع أن أتجاهل فكرته الأساسية فى الربط بين العلوم الأساسية والهندسة فى عصر بات بعض أقطابه يتصورون تضاؤل العلاقة بين هذين المجالين من مجالات المعرفة، وربما كان من حسن حظ مصر أن وجد عبدالرازق عبد الفتاح ومَنْ هم على شاكلته، ومَن هم من طبقته ممن آمنوا بضرورة تكثيف الدراسات المتصلة بالعلوم الأساسية فى كليات الهندسة، وذلك فى مقابل أقطاب مهن أخرى تصوروا التضحية بالعلوم الأساسية خطوة فى سبيل الحداثة، أو ضرورة من أجل توفير الوقت للإيغال فى الدراسات المهنية نفسها.

كـان عـبـد الـرازق عـبـد الفـتـاح يقـول إن المـهندس هو الـقـادر على التطبيق الابتكارى لمبادئ العلوم الأساسية، تصميما وتحليلا وتسبيبا. كما كان دائم التنبيه على ضرورة العلم للهندسة، وفى هذا المعنى كان يقول إنه بالرغم من استمرار أهمية الخبرة والحس المهنى فإن الاعتماد الأكبر أصبح يرتكز على التسبيب المنطقى الذى يغوص فى أعماق المادة والعلم، ولا يكتفى بالنظرة الماكروسكوبية، بل إنه تخطاها إلى النظرة الميكروسكوبية حيث دقائق الأشياء من الجسيمات الذرية إلى ما تحت ذلك.

وكان ينبه إلى أن العلم يخبئ الكثير من الاكتشافات التى لم تكتشف بعد والتى يصعب التنبؤ بها للخمسين سنة القادمة. وكان يردف هذا بقوله إنه مع اعتمادنا على العلم فى تحقيق هذه الاكتشافات فإن قدرة المهندس هى المنوط بها تحقيق الابتكارات.

وكان عالمنا الجليل يردف بالقول بأن المكون الأساسى للمهندس هو المعرفة العميقة بالمبادئ والنظريات الأساسية التى أفرزها العلم، ومن هنا يأتى الاهتمام بالعلوم الأساسية فى مناهج تعليم المهندسين. ولم يكن عبد الرازق عبد الفتاح يقف عند هذه العموميات، لكنه كان يجيد الحديث فى الخصوصيات الدقيقة لهذه العلاقة بين الهندسة وكل علم من العلوم الأساسية على حدة، وكان يصوغ إدراكه لهذه العلاقات بفلسفة رائعة فيقول:

«فالرياضيات التى تنمى الارتباط المنطقى بين الكميات والمتغيرات، تلعب الدور الرئيسى فى التعليل والتحليل والنمذجة والمحاكاة، أى أنها تنمى المهارات المنطقية. والفيزيقا باهتمامها بالطاقة وخواص المواد هى الأساس المهم فى تصميم المنظومات والأجهزة، سواء لتحويل الطاقة أو لبناء المعدات. أما الكيمياء

وهى التى تعنى بتركيب المادة فإن أثرها واضح لعلاقة التركيب بالخواص وسلوك المنظومات، فالتفاعلات تنتج مواد جديدة أو تستخلص طاقة جديدة».

وكان عبد الرازق عبد الفتاح ينبه إلى أن أسلوب المحاضرة التقليدى لا يتواكب مع المقتضيات الجديدة، كما أن اكتظاظ الفصول والمدرجات والمعامل بأعداد كبيرة من الطلاب يمثل بعثرة للجهد وضياعا للوقت، ونتيجته المحتملة تزايد «الإنتروبى» وزيادة الانتقال من النظامية إلى اللانظامية، وإلقاء مزيد من العبء على التقدم.

❑

أساتذتى الأجلاء:

كان أستاذنا فى عمادته لكلية الهندسة بالمطرية، وفى وكالته لوزارة التعليم العالى، وفى عضوياته المتعددة فى لجان التقييم والتخطيط للتعليم الهندسى وترقيات أساتذته، وبعد هذا كله فى رئاسته للجنة القطاع الهندسى، يلفت الأنظار إلى أهمية أن تكون قدرات المهندس ومهاراته عالية قياسا بالمستويات العالمية، وكان يعدد هذه القدرات فى استقلال الفكر، وروح المبادأة، والتخيل، والتحليل المنطقى والاستنباط، والاستقراء، وبما يتضمن الرؤى خارج المعارف المتاحة، والتفكير الناقد وصولا للتطوير، والتفكير الابتكارى، وتقبل التغيير للتعايش مع الحاضر بأدواته وأجهزته، والإسهام فى إحداث التغير، والاتصال والتعامل مع البشر (كتابة، وشفاهة، وحوارا)، وصنع القرار بدءاً بتجديد المشكلة ووصولا لتجسيد النظريات فى شكل سلع وخدمات، وحساب المخاطرة وإدارة الأزمات، وإدارة الزمن، والتعلم المستمر، وإدارة المعلومات.

وكان ينبه إلى أهمية إعداد طالب الهندسة ليصبح قادرا على تعليم نفسه الاكتشافات العلمية والابتكارات الجديدة، وكان هذا فى نظره هو معنى متابعة كل تقدم فى مجاله حتى يفهم بعمق هذه التطورات، وتنمية قدراته على التحليل وربط العوامل والمؤشرات التى تؤثر على موضوع التفكير وشحذ الخيال لوضع فروض أو شروط معينة، ومعرفة تأثير إنتاجيته على المجتمع والبيئة بحيث يرتبط بكود أخلاقى تجاه مجتمعه بما يضمن سعادته. وكان يقول إن الطالب يجب أن يفهم أن التعلم يعنى قدرة الفرد على عمل الشىء اليوم أحسن من الأمس، وأن لكل حل حلاً أحسن منه.

❑

أساتذتى الأجلاء:

كان عبد الرازق عبد الفتاح سبَّاقًا فى دعوته إلى تطعيم مناهج التعليم الهندسى بالنزعة الكلية الكفيلة بتنمية روح القدرة على ربط المنظومات الفرعية بالمنظومات الرئيسية، أو بعبارة أخرى النظرة المتكاملة للأشياء، والربط بين الأجزاء، وكان فى إيمانه هذا متمايزاً عن النزعة «الجامعية الزائفة» التى دفعتنا إليها المفاهيم البيروقراطية وأمراضها الاجتماعية حتى انتهت بنا إلى مجتمع الجزر المنعزلة فى الكلية الواحدة، فى ظل سياسات تمايز التخصصات وتباعد الأقسام. أما عبد الرازق عبد الفتاح فكان ينادى بالعمل على تداخل التخصصات، وكان يضرب المثل على أهمية فكرته بوجود أنظمة تحكم إلكترونية فى الكثير من المنظومات الميكانيكية.

وكان يقول: «إن تعقد المنظومات وتطور العمل يجعل العمل الفردى غير مجد، لذلك يجب إعداد المهندس للعمل ضمن فريق»، وكان ينطلق من هذا المفهوم إلى دعوته بإعداد المهندس ليكون متساويا مع زميله لا متطابقا معه،

وإلى إتاحة أكبر قاعدة ممكنة لاختيار المواد الدراسية ليحقق كل فرد ذاته، وليكون مع زملائه حزمة من الثروة المعرفية يكمل بعضهم بعضا فى تكامل وتناغم.

وكان أستاذنا ينبه إلى أن التحديات المستقبلية جديدة وأنه لابد من مواجهتها بفكر جديد وأساليب جديدة تقتضى البعد عن الجمود العقائدى، بل إنه كان فى حرصه على سعة أفق المهندس حريصا على أن يضمن التعليم الهندسى فى شخصية المهندس قدرا كبيرا من الإيمان باحتمال الخطأ وعدم التكبر عن الاعتراف به.

❑

وكان ينطلق فى فهمه لهندسة الإنتاج من حقيقة أن الفكرة الصواب هى التى تصمد لكل الاختبارات والنقد، لأن العبرة أولا وأخيرا بإنتاج سلعة تصمد للاختبار، وأن البحث العلمى هو أساس كل تقدم. وكان ينادى بأن ترتفع نسبة البحوث فى مؤسسات التعليم باستمرار وأن ترتفع نسبة عدد طلاب الدراسات العليا إلى حوالى ٣٠٪ من العدد الكلى للطلاب.

وكان يلفت النظر مرة بعد أخرى إلى ضرورة الاهتمام بتعميق الفهم للعلوم الأساسية وتوسيع مجال الاختيار لمستويات متقدمة فى فروع الرياضيات والفيزيقا والكيمياء. وكان يكرر الدعوة إلى الاهتمام بالنظرة «الميكروسكوبية»، وكان فى عزفه لهذه الفكرة على خلاف مع نغمة أخرى لا تزال سائدة فى عصرنا وهى النغمة الداعية إلى الاهتمام بالكليات والعموميات فى المقام الأول والأخير، لكنه كان واعيا بكل كيانه لخطأ التصور السائد، وكان ينبه إلى أن عالم الدقائق يحتوى الكثير من العوامل الحاكمة، سواء فى خواص المواد أو تفاعلاتها وسلوكها.

أساتذتى الأجلاء:

على الرغم من أن عبد الرازق عبد الفتاح كان قد بلغ القمة فى القدرة على ممارسة التعليم بالطرق القديمة التى تمثلها المحاضرة التقليدية، فإنه كان أشد الداعين حماسا إلى المحاضرة التفاعلية والعصف الذهنى والحوار والحفز على التطوير وإيجاد أكثر من حل للمشكلة الواحدة، وكذلك ورش العمل والحفز على التخيل.

وكان يدعو إلى أن يتضمن التعليم الهندسى تشجيع روح العمل ضمن فريق، وإرساء هذه الروح فى كل الخريجين، وكان يرى هذه الروح بمثابة عامل مهم للغاية فى عصر أصبح حل المشكلة الواحدة يتطلب قدرات أكثر من تخصص، خصوصا للعلوم الأساسية والمواد والتصميم والتحكم والاستشعار.

ولم يكن يتصور وجود حرم الجامعة أو الكلية خاليا من مكتبة متميزة، ومركز للكمبيوتر، ومكتبة لمواده، وأقراص صلبة، وأفلام، وموسيقى، وإمكانات اجتماعية وثقافية كافية.

وكان يدعو إلى الاهتمام بالمقررات الإنسانية، خصوصا بعد اتساع مفهوم القرية العالمية، وإلى إتاحة مناخ الحرية والديمقراطية، وإيجاد المناخ الصحى للبحث العلمى لأعضاء هيئة التدريس: التركيز، والأنساق، والاستمرار، وليمكنهم من حضور المؤتمرات والإسهام فيها، واحترام حرية أعضاء هيئة التدريس وتحقيق مستوى عال من مستوى الحياة لهم . كذلك كان عبد الرازق عبد الفتاح واعيا لأهمية الاعتراف المجتمعى والحكومى بقيمة العلم كمحرك أساسى لتقدم الحياة على الأرض.

وكان عالمنا الجليل يجيد وصف الأنماط الأساسية للتفكير الهندسى والتفريق بينها، وكان وصفه لخمسة أنماط منها أدق ما يكون، فقد كان يصف التفكير

المخلق بأنه صنع شيء جديد من أشياء مختلفة أو تكوين فكرة جديدة من أفكار متباينة، وكان يشير إلى أن من طبع المخلق أن يحب التكامل. وكان يصف التفكير المثالي بأنه تفكير في الأهداف ذو نظرة عريضة عن الموضوعات، وكان يلخص الأسئلة الحاكمة لهذا التفكير في سؤالين يطرحهما أصحابه حيث يقولون إلى ماذا يقودنا هذا ولماذا؟ وكان يصف التفكير العملي بأنه نمط فكرى قادر على استخلاص الحقيقي من الزائف من واقع الخبرة الشخصية لصاحب التفكير، وكان ينبه إلى مزايا هذا التفكير الكامنة في التحرر والتمكن: التحرر من الإصرار، والتمكن من التجريب والابتكار، كما كان يشير إلى أن هذا التفكير يكفل الحصول على أى شيء يمكن أن يعمل أو ينفع. وكان يصف التفكير المحلل أو التحليلي على أنه جماع لثلاث خصال متكاملة هي الحرص والمنطق والمنهجية، وكان يمثل لهذا التفكير بقول أصحابه لو أمكننا التقدم بطريقة علمية فإن القرار سيكون رشيدا صالحا للتطبيق مأمون المخاطر. وكان أخيرا يصف التفكير الواقعي ملخّصاً له في عبارة واحدة يقولها أصحابه وهي أن الحقائق هي الحقائق، وكان يشير إلى اعتماد هذا التفكير على الإحساس واللمس والشم والرؤية.

❑

أساتذتى الأجلاء:

كان عبد الرازق عبد الفتاح من المبشرين بالتكنولوجيا، والوعى التكنولوجى، والتعليم التكنولوجى، وكان يدعو إلى تقييم مستمر لمدى الارتقاء التكنولوجى فى المجتمع، وكان يشير إلى قصده من هذا التعبير وهو أن يكون المجتمع قادرا على التعامل مع التكنولوجيا ـ التى توصف بأنها محرك التنمية ـ بإيجابية وبدرجات متزايدة كمّاً وكيفاً، وبحيث يتحول المجتمع تدريجيا من الاقتصار على استيراد

التكنولوجيا إلى الاقتدار على توليدها بالقدرات الذاتية، مع توليد أكبر قدر من متطلباتها من الموارد المحلية من حيث المعرفة الفنية: تعليما وتدريبا وتطبيقا، والتصميمات الهندسية والقدرة والعمالة والمواد الأولية ومستلزمات الإنتاج والإدارة والتسويق.

ولم يكن أستاذنا يقصر تبشيره بالتكنولوجيا على قطاع الصناعة، وإنما كان سباقا إلى تنبيه مجتمعه إلى حقيقة أن الزراعة فى العصر الحديث قد أصبحت وكأنها صناعة، وإلى أن التقدم التكنولوجى فى الزراعة والإنتاج الحيوانى لا يقل أهمية عن نظيره فى الصناعة، وكان – وهو رجل الهندسة والصناعة – ينبه إلى أن أمريكا وهولندا وأستراليا وهى دول ذات شأن اقتصادى كبير قد أسست اقتصادها على الزراعة. ولهذا فإنه كان يدعو إلى الإسهام الفعال والتوسع فى وضع المواصفات القياسية للمنتجات المصرية زراعية وصناعية، والاهتمام بتأكيد الجودة الشاملة لإتاحة الفرصة لهذه المنتجات المصرية للمنافسة محليا وعالميا.

وكان منتبها إلى دور البحث العلمى والتكنولوجيا فى تنمية الصناعات الصغيرة وتطويرها، وكان يدعو إلى أن تتولى مراكز البحوث والمعاهد المتخصصة، بالاشتراك مع رأس المال الخاص والأجنبى، تكوين وحدات إنتاجية فى شكل مصانع صغيرة تتوافر لها: الخبرة الفنية، والقدرة على استيعاب التكنولوجيا العالمية، ونظم جودة متقدمة، ومنتج عالى القيمة. ويمكن لها أن تنشئ علاقة تبادلية وتكاملية مع صناعات صغيرة محتاجة للخبرة الفنية، وكان يلفت النظر إلى نجاح مثل هذه التجربة فى الهند وكوريا الجنوبية. وفى هذا الصدد كان ينبه إلى أهمية تشجيع الجامعات ومراكز البحوث على إنشاء وحدات «حضانات التكنولوجيا»، ومدها بالخبرة البشرية، وإمكانات المعامل والورش والمكتبات، والاختبارات الفنية للمنتج.

ولهذا السبب كان يطالب أيضًا بإصدار تعريف جديد للصناعات الصغيرة، يعتمد على الفكر الجديد الذى يبنى مثل هذا التعريف على عناصر رأس المال، وعدد العمليات الصناعية، وتكنولوجيا الإنتاج والتبادلية. كما كان يدعو إلى ضرورة الإسراع فى إخراج دليل للصناعات الصغيرة يحتوى على: الموجود منها، وأولويات إنشاء الجديد، وعناصر الخبرة الفنية المطلوبة لها.

أساتذتى الأجلاء:

عرف أستاذنا الفاضل بفهمه الرائد لدور البحث العلمى والتكنولوجيا فى إطار سياسة التحرر الاقتصادى، وعلى الرغم مما روجت له الظروف من مفاهيم غريبة عن العلم فى السنوات الأخيرة فقد كان عبد الرازق عبد الفتاح يرى أن دور الحكومة سابق وجوهرى، سواء فى دعم المؤسسات البحثية وفى توفير شتى العوامل الأساسية لتحقيق النجاح الاقتصادى، وذلك بحكم ولايتها على مقدرات البلاد، ومسئوليتها عن تلبية المطالب العامة للمجتمع وحيازتها لمعظم الأدوات والإمكانات التى تتجاوز قدرات الأفراد والجماعات.

وكان يدعو إلى أن يكون البحث والتطوير ركنا أساسيا وفعالا ومستقرا من أركان المؤسسة الإنتاجية، وإذا تعذر على الوحدة الإنتاجية أن يكون لها جهازها الخاص للبحث العلمى، فيمكن ربطها عضويا بمركز ملائم من مراكز البحوث، يتولى ويتابع هذا الجانب المهم من نشاط الوحدة الإنتاجية، متابعة وبحثا وتطويرا.

كان عبد الرازق عبد الفتاح فى فهمه للسياسات والتكنولوجيا الخاصة بالعلم فى مصر يؤكد على ضرورة الانتباه المستمر إلى المؤشرات التنموية، وعلاقة هذه المؤشرات بتعليمنا التكنولوجى وإدارتنا لمؤسسات البحث العلمى والتكنولوجى، وكان على سبيل المثال ينبه إلى وقوف الدخل القومى للفرد فى

مصر عند رقم ألف ونصف، بينما هو فى إسرائيل ستة عشر ألفا ونصف، وكان ينبه إلى أن نصيب الفرد المصرى من الكيلو وات ساعة لايزيد عن ألف، على حين أن نصيب الإسرائيلى خمسة آلاف. وكان يزعجه على نحو ما سجل بخط يده فى مذكرة استودعها صديق عمره وزميله أستاذنا الدكتور أحمد سالم الصباغ أن تمثل صادرات التكنولوجيا الراقية اثنين وستين فى المائة من دخل الفلبين، وهى التى لا تحظى إلا بتسعين مهندسا وعالما (من كل مليون مواطن) فى مجال التطوير، على حين لا تمثل صادرات التكنولوجيا الراقية فى مصر إلا تسعة فى المائة من الدخل وهى التى تحظى بأربعمائة وثمانية وخمسين مهندسا وعالما فى مجال التطوير التكنولوجى. أما الرقم فى الولايات المتحدة الأمريكية فيقترب من خمسة آلاف فى المليون، أى خمسة فى الألف.

وعلى هذا النحو الدقيق كان عبد الرازق عبد الفتاح واعيا تمام الوعى بما أشرنا إليه من قبل من أهمية الاعتراف المجتمعى والحكومى بقيمة العلم كمحرك أساسى لتقدم حياة المواطنين وأفراد الشعب.

❑

أساتذتى الأجلاء:

كان عبد الرازق عبد الفتاح من أفضل المخططين العرب لتطور التعليم الفنى والتكنولوجى، وله فى هذا المجال دراسة عن استراتيجية التعليم الفنى فى العالم العربى (١٩٧٢)، ودراسة عن الجامعة التكنولوجية (١٩٧٥)، وكان منحازاً لفكرتها ويراها ضرورة لتطور المجتمعات، كما أن له دراسة عن التطور الاقتصادى وعلاقته بالتعليم الفنى والهندسى..(وقد قدمها لمؤتمر المعلمين العرب الأول: بغداد ١٩٧٥)، وله أيضاً دراسة عن العلاقة بين التنمية الصناعية

والتعليم الهندسي والفني (دمشق ١٩٧٨)، ودراسة عن السياسة التكنولوجية وقضية الاختيار (١٩٨٤).

وقد أعد عبد الرازق عبد الفتاح للمجلس القومي للتعليم والبحث العلمي وشعبة التعليم الجامعي والبحث العلمي والتعليم العام، عدة دراسات مهمة كان من بينها «دور العلم والعلماء في صنع القرار» (يناير ١٩٨٥)، و«دور البحث العلمي في إنتاج الطاقة واستخدامها» (مايو ١٩٨٥)، و«الارتقاء التكنولوجي وإدارة الموارد»، و«نحو سياسة مستقبلية للتعليم».

أساتذتي الأجلاء:

عُني عالمنا الجليل – عليه رحمة الله – غاية العناية بتحديد دور الإدارة في مؤسسات البحث العلمي والتطوير التكنولوجي، وكان يقول: «إن تطوير إدارة مؤسسات البحث العلمي والتطوير التكنولوجي في مصر قد أصبح ضرورة بقاء في عالم اليوم، إذا ما أردنا تحقيق مشاركة تفاعلية في السوق العالمية للمعلومات والتكنولوجيا، تستند إلى اقتدار في مؤسسة البحث والتطوير الوطنية».

والشاهد أن أستاذنا كان ينبه إلى أن تحديات العصر، بعد تجريدها وإرجاعها إلى جذورها، هي في واقع الأمر تحديات علمية ـ تكنولوجية وليس أقل أو أكثر من هذا. فالعصر الذي نعيش فيه هو عصر لا يمكن أن تتحقق فيه القوة والاقتدار والمشاركة العالمية والنفاذ إلى الأسواق الخارجية، إلا من خلال الإبداع، وهو عالم لا يعرف سبيلا للإبداع إلا من خلال كفاءة الأداء في البحث العلمي الذي يستشعر توجهات العصر، ويلتقط إشارات السوق العالمية فيستجيب لها، وذلك هو شأن الحياة في القرن الحادي والعشرين.

وكان يشير إلى الميزة التي باتت المجتمعات المتقدمة تفيد منها، وهي ميزة الدفع الذاتي وتواصل الحركة. أما المجتمعات النامية فعليها أن تنشئ قوة فائقة

الدفع لتصويب المسارات إلى أقصى مدى، وتدارك الفرص الضائعة، أو إيجاد حركة بدلا من حالة السكون. كل ذلك فى اتجاه صاعد يواكب حركة الحياة فى العصر الجديد، وكان ينبه إلى أن مثل هذه الخطوات تتطلب تكلفة باهظة فى المال والجهد والإرادة والنوايا المعقودة، لكنه طريق حتمى لأن تكلفة التقاعس أو التردد والتأجيل أخطر فداحة بكل المعايير.

ومع هذا فإنه كان يقول: « إنه ليس بالمال وحده يكون الارتقاء واللحاق، ولكنها منظومة الإدارة الشاملة التى تجعل من المال عنصرا من عناصر الارتقاء بالمنظومة الإدارية، وبدونها يكون المال وإن كان فى وفرة، ودون عوائد مجزية، مأخذا على المؤسسة».

وكان ينبه إلى أن التغيير من مسار إلى مسار يلزم أن يكون مصحوبا بمشقات يتم الاعتراف بها وتحملها، لأنه تغيير بمقدار عشرين درجة حينا أو خمسين درجة حينا آخر، وقد يكون بمقدار مائة وثمانين درجة.

❑

أساتذتى الأجلاء:

كان عالمنا الجليل حريصا كل الحرص على التفريق بين مطلب العلم ومطلب التكنولوجيا على مستوى الفرد الباحث، والمدير والقائد، والقانون، والتمويل الكافى، ولم يكن حريصاً على هذا التفريق فحسب لكنه كان مجيداً له قادراً على صياغة التعبير عنه بأحكم العبارات.

وقد أسهم مع زملائه فى شعبة التعليم العالى والجامعى فى المجالس القومية المتخصصة فى إعداد مقارنة رائعة بين متطلبات العلم ومتطلبات التكنولوجيا فى هذه المستويات. وقد أجادت هذه المقارنة فى التعبير عن التمايز بين مطلب العلم وله قيمه وممارساته، وبين مطلب التكنولوجيا ولها قيمها وممارساتها.

كان أستاذنا يقول:

«إن نقطة البداية فى العلم هى الفضول، وقد لا تكون نقطة نهاية حتى مع إشباع الفضول، ومن ثم فللعلم قيمة حضارية كبرى، ومن مجمله وتراكم نتائجه يكون تراث الإنسانية جمعاء، لذلك قد يكون صحيحا أن ولاء العالم هنا يكون للأسرة البشرية. أما نقطة البداية فى التكنولوجيا فهى الحاجة، ولا تكون النهاية إلا مع الوفاء بهذه الحاجة، ومن مجمل وتراكم نتائجه تكون قوة وثروة المجتمع المحلى (فى الشركة أو المؤسسة)، ومن ثم فإن الولاء فى التكنولوجيين لابد أن يكون للوطن فى مقابل ولاء العلماء للإنسانية».

وكان يقول:

«إنه لابد فى البحث العلمى من نشر نتائجه ليعلم بها الكافة ولا يصح أخلاقيا حجبها، أما فى التكنولوجيا فلا يصح نشر النتائج وذلك بسبب قيمتها التجارية المحتملة، ولهذا يلزم حجبها إلا عن الطرف الذى يعتزم استغلالها، وتفقد النتائج قيمتها إن ذاعت وشاعت، والباحث لذلك يهمه حبسها إلى أن تتم حمايتها وإثبات ملكيته لها قانونا».

وعلى حين أن العلم يعتمد بدرجة كبيرة على المبادرات الشخصية، وهو لذلك ذاتى التوجه، فإن التكنولوجيا والبحث والتطوير تعتمد بدرجة كبيرة على الرؤى والمبادرات والقرارات المؤسسية، وهو لذلك موضوعى فى المقام الأول.

وعلى حين أن الباحث العلمى لا يرحب عموما بالمشروعات التكليفية، فإن الباحث فى التكنولوجيا يرحب بالمشروعات التكليفية لأنها تعتبر اعترافا بقدراته، واحتراما لحرفيته، وطلبا على عطائه، رغم أنها تمثل قيدا على حريته الشخصية.

وفى الأعمال الكبيرة فى العلم يكون البحث رياديا فى فكره ومستواه، أما فى مطلب التكنولوجيا فى الأعمال الكبيرة تتخذ الاجتهادات (فى الفكر والمستوى والأداء) طبيعة الملاحقة التى يقتصر الطموح فيها على طلب اللحاق بالسابقين فى ذات موضوعات سبقهم.

وعلى حين أن العلم لا يتطلب فى المعارف المولدة قيمة مادية مباشرة، فإن التكنولوجيا تتطلب هذه القيمة المباشرة، نظرا لأن النتائج المطلوبة تكون فى الأغلب معلومة التجسيد سلفا، ولأن قيمتها المادية (التجارية) مؤكدة، فإنها تكون سلعة تعرض فورا فى الأسواق أو تورد لطالبها.

أساتذتى الأجلاء:

كان عالمنا الجليل يدرك عن فهم متصل الدور الذى يجب أن تؤديه المؤسسات العلمية والتكنولوچية والتعليمة من أجل مستقبل الوطن. و فى إطار فهم عميق لوظيفة مؤسسات البحث واسم التكنولوچيا فإن عبد الرازق عبد الفتاح لم يكن يخفى أنه غير متفائل بالحصيلة الكبيرة من رسائل الدرجات العلمية والبحوث المنشورة التى تحققت فى مؤسسة البحث العلمى المصرى خلال الأربعين عاما الماضية، وكان يرى أن هذا الكم قد أضفى طابعاً غير مطلوب فى هذه المؤسسة جعلها تبدو وكأنها خلقت أصلا لتكون «مدرسة للدراسات الجامعية العليا من المستوى الرابع»، أو لأنها تحولت إلى ذلك السبيل الآخر باختيار منها، أو بغير اختيار.

وفى المقابل كان أستاذنا يرى ضرورة أن يؤمن الباحث العلمى فى مؤسسة التكنولوجيا بضرورة التطلع إلى تضييق فجوة التخلف التكنولوجى، فيكون قراره - فى إطار المنظومة - هو الأخذ بسلوك الملاحقة التكنولوجية التى تستهدف اللحاق بالسابقين، أو على الأقل الاقتراب الحثيث منهم. وكان يدعو إلى الاهتمام

بالاجتهادات فى إدخال إضافات أو تطويرات أو تعديلات أو تحسينات محدودة، أو حتى هامشية، على السلع الحديثة. وكان يقول إن القدرة على الإضافة، هامشية كانت أو جوهرية، لابد أن تقوم على السيطرة أولا على المضاف إليه، الذى هو فى سياقنا الحالى: السلعة أو طريقة الإنتاج التى أبدعها الآخرون، وإثبات السيطرة هنا هو الجائزة التى تبعث الأمل صادقا فى أن يتواصل الاجتهاد المجدى بتعاظم قيمة الإضافات الواحدة تلو الأخرى. وكان يلخص فكرته هذه فى قوله: «إن القدرة على الإضافة هى الجوهر الغالى فى أى عمل يبتغى الملاحقة التكنولوجية».

أساتذتى الأجلاء:

كان فقيدنا العظيم عليه رحمة الله واعيا لدور الإدارة فى المؤسسات العلمية الجامعية والبحثية، وكان ينبه إلى حقيقة مهمة وهى أنه إذا وجدنا الرجل الأول مشغولا بالعمل قصير المدى، فهناك شبهة أو احتمال أنه لا يملك فكرا ولا إرادة العمل الاستراتيجى بعيد المدى، ومن ثم فإنه يشغل نفسه بالمسائل اليومية، وقد يستعذب أو يستسهل هذا النوع من المسئولية ويجد فيها سترا وغطاء له، وكان يقول إنه خير للمؤسسة، بل خير للرجل نفسه، أن يختار ليكون رجلا ثانيا من الطراز الأول، بدلا من أن يختار ليكون رجلا أول من الطراز الثانى.

وكان يلفت النظر إلى أهمية أن يكون المسئول عن إدارة مؤسسة البحث العلمى متمرسا فى البحث العلمى الذى يقترن بالتطوير التكنولوجى، عارفا بمداخله ومخارجه، وآلامه وآماله، دون أن يكون بالضرورة عالما فذا متميزا وذا عطاء كبير، إذ لا يصح أن يخلع مثل ذلك العالم خلعا من معمله ومن ردائه الأبيض، مثلما لا يصح أن يخلط بين التميز العلمى والكفاءة الإدارية.

وكان ينادى باتباع أسلوب «البحث عن المدير الجديد» من خلال مجموعة عمل خاصة تتجرد من أى انتماءات أو انحيازات أو أحكام مسبقة، وأن تجرى عملية «البحث عن المدير الجديد» خلال فترة مناسبة (لا تقل عن ستة شهور) قبل انتهاء خدمة المدير الحالى، وأن يكون ميدان البحث هو الساحة الوطنية بأسرها.

وكان يدعو إلى الوصول إلى درجة من خصخصة الأنشطة التى تديرها مؤسسة البحث والتطوير، بإشراك الأطراف المستفيدة فى تمويلها، وربما فى بعض ملكيتها وإدارتها وتوجيه سياساتها، بهدف الاستفادة الاستثمارية من النتائج التى يتم التوصل إليها.

وكان يقول:

«إن كثيرا من الخير يمكن أن يتحقق من خلال التوحد، أو الاقتراب الحثيث من التوحد، بين صنع الرؤى والسياسات من جانب، وتحقيق النتائج وتطبيقها من جانب آخر، أى أن يكون صاحب المصلحة هو نفسه مالك المؤسسة أو المشروع».

أساتذتى الأجلاء:

أستأذنكم فى أن أعود بكم الآن لألخص ما يعرفه بعضكم من قصة هذا الرجل العظيم، مع الحياة ومع العلم، وهى قصة كفاح عصامى لم يتح لغيره أن يصل إليها، وهى قصة بل رواية، بل رواية أجيال تدلنا على شغف بالحقيقة وبالمعرفة وبالأكاديمية على نحو غير مسبوق: نال أستاذنا دبلوم مدرسة الفنون والصناعات فى الهندسة الميكانيكية (١٩٤٠)، ومارس العمل به، فكان مهندسا فى السكة الحديد لأربعة أعوام، من عام أربعين وحتى عام أربعة وأربعين (١٩٤٤)، ثم

كان من رجال التعليم الصناعى فى وزارة المعارف أستاذاً وموجهًا ومصممًا. لكنه قبيل افتتاح جامعة إبراهيم وإتاحتها الفرصة لأمثاله من العاملين ذوى الخبرة أن يلتحقوا بكلية الهندسة الجامعية.. آثر أن يستزيد من العلم فالتحق بتلك الكلية الجديدة فى ذلك الوقت، وكان حظه من التفوق فوق ما يتصوره العقل، لكنه أضاف إلى هذا خطوة ثالثة أقدم عليها فى فدائية نادرة، حيث سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية على نفقته الخاصة ليتابع الدراسة الهندسية العليا فى كبرى جامعاتها فحصل على درجة الماجستير فى الهندسة الميكانيكية من جامعة دترويت عام (١٩٥٨)، ثم على درجة الدكتوراه فى هذا التخصص من جامعة متشيجان آن آربر عام (١٩٦٠)، وقد حصل على هذه الدرجة فى سنتين وثلاثة شهور، وهو كما ذكر أستاذنا الدكتور محمود حافظ فى استقباله له عضوا في هذا المجمع زمن قياسي للحصول على الدكتوراه لم يحدث فى تاريخ هذه الجامعة حتي الآن. وكان إبّان دراسته قد لفت إليه أنظار أساتذته لنبوغه وتفوقه، وبعد مناقشته فى رسالته للدكتوراه اتصل به معهد العلوم والتكنولوجيا بالجامعة وعهد إليه بالإسهام فى إنتاج وحدة تسخين بالقوس الكهربائى لدرجات حرارة تزيد على أربعة آلاف (٤٠٠٠° م) درجة مئوية، وكان هذا إنجازا علميا كبيرا له قيمته التطبيقية فى الصناعة، شأنه فى ذلك شأن الاختراع الذى توصل إليه ببحوثه الرائدة لتحسين محركات الديزل بواشنطن (١٩٦٢)، وقد عمل كمهندس بحوث فى معهد العلوم والتكنولوجيا بجامعة ميتشجن بأمريكا منذ عام (١٩٦٠)، وبعد ذلك تابع بحوثه فى أثناء مهمة علمية أوفد فيها إلى كلية الطيرانيات بكرانفيلد بانجلترا (١٩٦٣).

وقد تعددت وظائفه وإنجازاته فى كثير من المجالات المتصلة بالهندسة الميكانيكية، كما تعددت إسهاماته العلمية والتأليفية فى مجال تخصصه. وقد نقَل

عبد الرازق عبد الفتاح إلى اللغة العربية كتابا عن الديناميكية الحرارية (١٩٦٨)، وله مؤلَّف قيم عن ترشيد الطاقة (١٩٨٥)، وراجع عددا من الكتب المترجمة إلى العربية،، منها: التفاضل والتكامل، الحرارة والديناميكا الحرارية الكلاسيكية، تحليل المتجهات، طرق الحسابات للمشتغلين بالصناعة وغيرها، كما قام بالإشراف العلمى والمراجعة على «المعجم الموحد الشامل للمصطلحات الفنية للهندسة والتكنولوجيا والعلوم» الذى أصدرته مؤسسة الكويت للتقدم العلمى (١٩٨٦)، وأشرف كذلك إشرافا علميا على قاموس أصدرته مؤسسة الأهرام للترجمة العلمية والنشر (١٩٨٧).

❑

أساتذتى الأجلاء:

على الصعيد النقابى مارس عبد الرازق عبد الفتاح العمل النقابى فى مستوياته المتعددة، وانتخب عضوا فى المجلس الأعلى للنقابة عام (١٩٦٤)، وأميناً عامًا للنقابة منذ عام واحد وسبعين وحتى عام خمسة وسبعين (١٩٧١ - ١٩٧٥)، ووكيلا للنقابة منذ عام خمسة وسبعين وحتى عام تسعة وسبعين (١٩٧٥ - ١٩٧٩).

وفى المجال المهنى الدولى كان عبد الرازق عبد الفتاح عضوا بجمعية المهندسين الميكانيكيين الأمريكية، وبالجمعية الدولية للاحتراق.

وعلى صعيد الجمعيات العلمية الوطنية كان عضوا فى جمعية المهندسين المصرية منذ عام (١٩٦١)، وكان عضوا فى المجمع العلمى المصرى، والأكاديمية المصرية للعلوم، وهما أعلى أكاديميتين علميتين، وقد توج هذا كله بعضوية هذا المجمع العظيم منذ عام ثمانية وتسعمائة ألف (١٩٨٨).

وقد أصبح عضوا فى المجالس القومية المتخصصة منذ عام ستة وسبعين وأسهم بجهد وافر فى المجلس القومى للتعليم، حيث كان أمينا لشعبة التعليم الجامعى مع زميله وزميلنا المغفور له الدكتور شفيق بلبع، كما كان عضوا فى شعبة التعليم الفنى، وكان كذلك عضوا فى شعبة الصناعة بالمجلس القومى للإنتاج ، وكان كذلك عضوا بمجالس أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا ، كما كان على الدوام عضواً فى لجنة قطاع العلوم الهندسية فى المجلس الأعلى للجامعات. وقد رأس لجنة القطاع هذه لفترة من الزمن كانت له فيها إسهاماته الفكرية والتربوية .

وقد نال أستاذنا الجليل من تقدير بلاده مظاهر عديدة، كان أهمها وأعظمها التقدير المتصل الذى لا يعرف حدود الرسميات ، ذلك أن الأعناق كانت تشرئب دوما للنظر إلى منطقه السديد، وفكره الجديد، وتاريخه المجيد. وقد نال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم (١٩٨٤)، كما نال جائزة مبارك فى العلوم التكنولوجية فى العام الثالث من القرن الحادى والعشرين – عام ٢٠٠٣ . كما نال وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٧٩، ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى عام ١٩٨٥ .

❏

أساتذتى الأجلاء:

فى نهاية تأبينى لأستاذنا الجليل أعود لأتذكر معكم بعض ما قدمت به حديثى من أنه رزق فوق الذكاء الحاد وفوق الإدراك الوقاد وفوق العمل الجاد بصيرة العباقرة التى هيأت له محلا رفيعا فى الوجدان وفى الأذهان على حد سواء.

كان عبد الرازق عبد الفتاحِ نموذجا للمهندس الذى امتزجت الهندسة بدمه وبدنه وأعصابه وحركاته وسكناته، حتى ليسهل على الرائى أن يكتشف مهنته بعد دقائق قليلة من اللقاء به أو الاستماع إليه أو القراءة له.

اجتمعت فى شخصيته وفى آثاره أنماط خمسة من التفكير والأداء فكانت تغلب عليه فى إنجازاته نزعةُ التفكير الخلاق، إلا أنه كان فى أدائه مثاليَّ النزعة، وكان فى رياسته عمليَّ الوظيفة، وكان فى أحكامه النقدية تحليليَّ التقييم، وكان فى رؤيته لوطنه ومؤسساته واقعيَّ التقدير.

كان أقدرَ الناس على التمييز بين الفعل ورد الفعل، وعلى التمييز بين السبب والنتيجة، وعلى التمييز بين الدافع والمساعد، مع ما يكتنف كل هذه التميزات من صعوبات بالغة، لكنه كان يتوسل إلى هذا كله بما حباه الله به واختصه به من علم غزير، وخبرة واسعة، وعقلية ناقدة، ونظرة نافذة، وانحياز إلى الحقيقة وشغف بها، وكانت حظوظه من كل هذه الصفات الرفيعة وافرة بفضل الله الذى حفظها عليه حتى لقى وجه ربه الكريم.

رحمه الله رحمة واسعة وأجزل عطاءه، وغفر له ولنا، وعوضنا عنه، وألهمنا نحن وأسرته وتلاميذه وعارفى فضله الصبر والسلوان.

د. محمد بلتاجي حسن

د. محمد بلتاجي حسن

سيدى الرئيس ،

سيدى النائب ،

سيدى الأمين ،

أساتذتى الأعضاء ،

ضيوفنا الأجلاء ،

أيها الجمع الكريم ،

جمعتنى بأستاذى الراحل تلمذة كان يسميها زمالة، وزمالة كان يسميها أخوة، وصدفة كان يسميها منطقاً، وإعجاب كان يسميه تقديراً، وعلم كان يسميه رَحماً، ولست أنسى أن آخر كلماته على هذه المنصة كانت تعبيراً عن هذا الحب كله بتحية صدرت عن قلب كان مفعماً بالولاء، ونفس كانت عامرة بالصفاء، وروح عاشت محملة بالوفاء، وجوارح ظلت حريصة على العطاء، وفطرة ظلت

محتفظة بالنقاء، وسيرة عطرة ستظل أبد الدهر مثلاً للعلماء الأولياء الأتقياء الأنقياء الشرفاء الأوفياء الأصفياء.

كان أستاذنا رحمه الله شخصية ذات أبعاد مثلى، كانت شخصيته طويلة البال، عريضة الجاه، عميقة العلم، عالية القدر، واسعة الصدر، رفيعة الفكر، بعيدة النظر، كبيرة القلب، رحبة الأفق.

❑

أساتذتى الأجلاء:

من المسلّمات الخادعة فى تاريخنا العلمى أن علوم الشريعة الإسلامية علوم مطلقة الصواب والحق، تتطلب الإحاطة فحسب، وليست الإحاطة بها بالشيء اليسير، فهى بحور لجية لمن توقف في وسط الطريق، وهى محيطات هادية لمن مضى إليها عن علم ومرانة، وقد صوِّر للباحثين والعلماء المعاصرين من الذين تولَّوْا وظائف الأستاذية فى جامعات البلدان الإسلامية أنَّ أقصى ما يمكن لهم أن يصلوا إليه من تجديد فى فروع الشريعة هو البحث للأحكام والظروف الطارئة على ما يقيسون عليه من الأحكام المستقرة. وقد قادت طبيعة مؤسساتنا العلمية والتعليمية المعنية بدراسة الشريعة الإسلامية والبحث فيها إلى التوقف عند حدود العلم بالشريعة نفسه، دون البحث عن فلسفة علم الشريعة، وظل الحال هكذا إلى أن جاء رجل نجتمع اليوم لتكريم اسمه ليرود مجالا جديدا من البحث العلمى فى الشريعة الإسلامية بحثا عن منهج العلم، وفلسفة العلم، وتاريخ العلم.

أدرك الدكتور بلتاجى منذ مرحلة مبكرة من عكوفه على دراسة الشريعة الإسلامية مدى الخصوبة التى تتمتع بها هذه الشريعة مجالاً للبحث العلمى المستفيض والمتجدد مع الأيام، وقد شيء له أن يبدأ بحوثه بدراسة المنهج

التشريعى لواحد من كبار رجال الدولة فى تاريخ الإنسانية، فإذا به يجد من خلال دراساته المتأنية بعض العوامل التى أثرت فى التفكير التشريعى على مدى قرون تالية، وإذا بفطرته العلمية النقية ونفسه المشرئبة إلى معرفة الحقيقة تقوده من حيث يدرى ومن حيث لا يدرى إلى أن يكون من أوائل الباحثين فى علم جديد من علوم الشريعة، وهو علم يناظر علم الأجنة فى الطب الإنسانى، ذلك العلم الذى لا يدرس التشريح ولا الأنسجة على نحوٍ ما هى فى حال الصحة ولا على نحوٍ ما هى فى حال المرض، ولا على ما هى عليه فى بدايات الحياة، ولا فى نهايتها، ولا فيما بعدها، وإنما هو يدرس قدرة الخالق فى تكوين الأجنة فى الأرحام من نطفة فعلقة فمضغة، وكذلك بدأ بلتاجى يفعل فى دراسة المذاهب الفقهية الإسلامية التى صاغها أصحابها بعقول بشرية هداها الله إلى كثير من الصواب، لكنه سبحانه وتعالى لم يختصها بما اختص به نبيه عليه الصلاة والسلام من ألا ينطق عن الهوى.

هكذا بدأ عالمنا إسهامه فى تاريخ التشريع الإسلامى دارسًا لأجنة المذاهب الفقهية دراسةً أستأذنكم فى أن أصفها بألفاظ الطب والعلم فأقول إنها كانت دراسة تشريحية وصفية مقارنة، ودراسة نسيجية تشخيصية ممايزة، وقد عكف على التراث الفقهى فى القرن الثانى الهجرى عكوفًا متأنيًا وأخذ يطالعه مطالعة حصيفة من موقف قوة لم يتهيأ لغيره من قبله، بل ربما ساعدته الحضارة والطباعة والمكتبة والببليوجرافيا على أن يحيط من رؤى المتناظرين والمتعاصرين بما لم يكن هؤلاء المتناظرون والمتعاصرون يلمون به من أحوال بعضهم، وقد هيأ الله له أن يخرج من هذا العكوف بدراسات رائدة كان ينظر فيها من حين لآخر فيجدها ولادة للأفكار، صدّاعة بالحق، دمّاغة للباطل.

وقد انتبه عالمنا إلى أن القرن الثانى الهجرى قد تميز بظواهر بارزة فى مجال التشريع والفقه والاستنباط تجعله صالحا - إلى أقصى حد - ليكون مجالا للدراسة الواصفة للتشريح الجنينى للمناهج الفقهية التى سار عليها أبرز مفكرى تاريخ التشريع الإسلامى من فقهاء عصور ما بعد الصحابة، وقد عدّد الدكتور بلتاجى هذه الظواهر فى ثلاث وهى: أن العصر كان عصر تدوين، وأنه شهد حياة معظم الأئمة المتبوعين، كما شهد نشأة الكتابات الأصولية المنهجية التى استهدفت تقنين قواعد علمية منظمة لطرق الاستنباط الفقهى الصحيح من النصوص والمصادر.

❑

أساتذتى الاجلاء:

كان الدكتور بلتاجى قد بدأ أول بحوثه العلمية بتمحيص مقولة شائعة وهى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يخالف نصوص القرآن والسنّة ويتركها فى سبيل ما يراه مصلحة عامة. وقد درس عالمنا فقه عمر بن الخطاب كله دراسة موضوعية، واستخلص خطته التشريعية وأصوله العامة وانتهى إلى أنه رضى الله عنه لم يخالف - مرة واحدة - نصّا من القرآن أو السنّة، لكن الاعتبارات التشريعية التى كان يراعيها فى تطبيقه للنصوص كانت من العمق بحيث غاب بعضها عن بعض الباحثين فظنوا أنها من باب ترك النص للمصلحة.

وظنى أن ما حققه أستاذنا فى الوصول إلى هذه النتيجة يمثل إنجازاً كبيراً على الرغم مما قد يتراءى للبعض منا من أن البلتاجى جعل راديكالية ابن الخطاب نوعاً من الرجعية أو النصوصية أو الأصولية، ذلك أن البلتاجى نجح فى أن يصور إنجاز ابن الخطاب قابلاً للتكرار وللاقتداء والاهتداء بدلاً من أن تستقر

صورة اجتهاده ومذهبه التشريعى فى راديكالية وقتية تنتهى بنهايته، وتتحدد بحياته، وتنحصر فى القضايا التى تناولها فى حياته، وكأن البلتاجى كان يستنهض هممنا لأن نفعل مثل ابن الخطاب فى فهمه للنصوص بدلاً من أن نقول: وأين نحن من ابن الخطاب الذى عطل النصوص!!

وعلى نحو ما تصدى بلتاجى بالتفنيد للمسلَّمة القائلة بأن عمر بن الخطاب كان يخالف نصوص القرآن والسنّة ويتركها فى سبيل ما يراه مصلحة عامة، فإنه تصدى للمسلمة القائلة بأن الإمام الأعظم أبا حنيفة كان يعرض أخبار الآحاد المروية له على القياس والرأى رافضا منها كل ما يخالف القياس. وفى سبيل تحقيق هذه القضية الخطيرة راجع عالمنا كل ما صحت نسبته إلى أبى حنيفة من فقه ورأى وقول، فلم يجد فيها جميعا مسألة واحدة رفض فيها أبو حنيفة خبرا روى له عن رسول الله ﷺ لمحض القياس والرأى. فكل أخبار الآحاد التى رفضها أبو حنيفة ترجع إلى مقاييسه الأخرى. ولم يصح عنه مطلقا أنه رفض خبر آحاد واحداً لمجرد القياس، بل لقد وُجد عكس ذلك تماما فى كثير من مسائله، حيث كان يترك الأقيسة العقلية لما صح لديه من أخبار آحاد، بناء على تطبيق مقاييسه، وكان يطلق على هذا اسم «الاستحسان»، بل إنه كان يترك القياس العقلى لما صحّ لديه من أقوال الصحابة.

ويرجع بلتاجى السبب فى شيوع هذه المسلمة إلى ما شاع عن الإمام الأعظم من شهرته الكبيرة بالقياس والجدل وقوة مراسه العقلى، بالإضافة إلى رده عددا كبيرا من أخبار الآحاد ـ بناء على مقاييسه ـ وهو ما هيأ للتعصب المذهبى فرصة نادرة للطعن فيه بحجة أنه كان يستبيح لنفسه ترك أخبار الآحاد لمجرد أقيسته العقلية، مما لم يصح بعد دراسة بلتاجى فى أية مسألة مما نسب إلى أبى حنيفة.

بل إن الدكتور بلتاجى يصل إلى حقيقة أخرى لا تقل أهمية فى فهمه العميق

لفقه أبى حنيفة وهى أننا لا نجد فى أقوال الإمام الأعظم أو فقهه ما يكشف عن تصوره لفكرة «الإجماع» بوصفه مصدراً تشريعياً مستقلا ـ بأبعاده التفصيلية ـ عن باقى المصادر. لكننا نجده، فى الوقت ذاته، يأخذ بما تواتر النقل فيه عن النبى ﷺ، وبما اتفق الصحابة على العمل به فى بعض الفروع الفقهية، فإذا تعدينا هذين النطاقين فلن يجد الباحث فى فقه أبى حنيفة وآرائه ما يكفى لاستخلاص فكرة تفصيلية واضحة عن «الإجماع»، كما أنه لن يجد أيضا تلك المباحث التفصيلية التى أثارها أصوليو الحنفية عن «الإجماع» بعد عصر أبى حنيفة ونُسبت إلى مذهبه على وجه العموم.

❑

أساتذتى الأجلاء:

من آيات فضل الدكتور بلتاجى أنه كان ينحاز إلى المنهج انحيازاً تامًا، على الرغم مما نتوقعه من عالم مجيد للسباحة فى بحر من أدبيات الفقه وتراثياته، قادر على استعادة النصوص واسترجاعها وتأويلها، لكن حقيقة الأمر أن انحياز بلتاجى للمنهج جعله أكثر تمسكاً بالنصوص، لكنه تمسُّك مختلف، إنه تمسُّك المنهجى المحيط المستوعب السابر للأغوار، وهو لا يقدس المنهج ولا يعبده، لكنه يحترمه وينحاز إليه، يتلمس عالمنا المنهج ويصوره، لكنه من باب الأمانة لا يُدخل فيه ما ليس فيه، وهو حفىّ بأن يبحث فى كل التراث الفكرى عن وجود المنهج فإذا ما وجده استبشر به وحلله وقارنه وبيّن أصله وفصله، ومبدأه ومنتهاه، فإذا لم يجد المنهج فيما قلّب من تراث فكرى لم يجد حرجًا فى أن يصرح بهذا بكل وضوح، وهو يفعل هذا على سبيل المثال مع المحدّثين الذين كانت علوم الحديث ـ حفظاً وروايةً وجرحاً وتعديلاً ـ أهم ما اشتهروا به من علم،

فيقول إن علمهم هذا ـ مع أهميته الكبيرة وقدسية مجاله وموضوعه ـ لا يكشف في ذاته عن منهج تشريعي، بل إنه لا يكشف في معظمه عن جدارة أو استحقاق لوصف (الفقيه) ذاته.

وهو يضرب مثلاً بارزاً بالمحدث العظيم قَتَادة فيقول عنه بعد درس وتمحيص: إنه ليس إلا وعاء أثرٍ محفوظ، ينقُله بأمانة وحرص، ولكن دون أن يحيط بأبعاده الفقهية وما يمكن أن ينشأ عنه من تفريع. فهو مع علمه الكثير ليس فقيهًا، فضلاً عن أن يكون ذا منهج تشريعي مستقل متميز في الاستنباط الفقهي، إنما هو «محدث» و«حافظ أمين للأثر» فحسب.

ويستخرج أستاذنا من تاريخ التشريع الإسلامي أدق ما يدل على هذا التفريق الذي وصل إليه وهو قصة حوار طريف دار بين اثنين من الأعلام في تاريخ التشريع تدل دلالة واعية على هذا المعنى، فقد كان الأعمش يسأل أبا حنيفة عن مسائل، ويجيبه أبو حنيفة، فيقول الأعمش: من أين لك هذا؟ فيقول: أنت حدثتنا عن إبراهيم، وحدثتنا عن الشعبي بكذا وكذا.. فيقول الأعمش: يا معشر الفقهاء، أنتم الأطباء ونحن الصيادلة.

ومثلما فعل عالمنا مع قتادة ومع الأعمش يفعل كذلك مع أستاذ أبي حنيفة المشهور حماد بن أبي سليمان وهو يتحدث عنه بأنه تلقى فقه إبراهيم النَخعي وسابقيه بالكوفة، لكن قدراته قصرت به عن أن يستقل عما تلقاه عنهم بمنهج تشريعي أصيل متميز يُنسب إليه، ويؤيد بلتاجي دعواه هذه بكل ما أمكنه من شواهد.

وتقود دراسات التشريح الحنيفي الفقهي عالمنا الجليل إلى الانتباه إلى كثير من الفروق المهمة في مناهج الفكر والتفكير والفقه والتفقه، فيهدينا إلى ما اهتدى

إليه بفضل الله من أحكام صائبة ورؤى شائقة، وهو على سبيل المثال ينبه إلى الفروق بين النزعة الظاهرية التى نشأت عند داود وابن حزم من بعده، وبين النزعة الحرفية التى وجدت قبل ذلك عند بعض الخوارج من الأزارقة والبيهسية والميمونية، وهى النزعة التى أوغلت فى الحرفية ورفضت الكثير مما يمكن فهمه عقلاً من النصوص.

كذلك تقوده الدراسات الممايزة إلى إدراك تميز بعض المذاهب ببعض السمات التى تبدو وكأنها بعيدة عن طابع المذهب، وكيف أثرت هذه السمات الممايزة فى المذهب ذاته وفى انتشاره أو تسلسله، وهو على سبيل المثال يروى لنا أن الإمام زيد بن على كان فى حياته يرى «جواز إمامة المفضول مع قيام الأفضل»، ومن ثم فإنه كان يرى جواز إمامة الشيخين أبى بكر وعمر رضى الله عنهما مع وجود علىّ كرم الله وجهه لأنه الأفضل عندهم. وهو يحدثنا حديث خبير بأثر السياسة على الفقه فى مثل هذا الموقف فيكشف لنا الستار عن أن شيعة الكوفة لما سمعت هذه المقالة من الإمام زيد وعرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين رفضوه. وهكذا رفض الإمامية الاثنا عشرية إمامة زيد حيا وميتا، وأغفلوا ذكر مجموعه الفقهى كأحد مؤلفات الشيعة المبكرة.

ويبين عالمنا عن هذا الأثر الذى طبعته السياسة على الفقه من خلال دراسة متأنية لنص المجموع الفقهى الذى توصل إلى أسبقيته لكل الكتب والمصنفات الحاوية للمناهج الفقهية، ومع هذه الأسبقية فإنه، عند الشيعة، ظلّ ولا يزال يعانى التجهيل عن عمد بسبب هذا الموقف السياسى الواضح، وهو يجزم بأن موقف الشيعة السياسى من الإمام زيد بن على - على مر العصور - يفسر موقفهم من مجموعه الفقهى.

ومع هذا فإن عالمنا بكل ما جبل عليه من تدقيق ومن حرص على الإنصاف

يسجل أنه لم يجد فى كل ما قرأه عنهم أى طعن صريح فى صحة نسبة المجموع لزيد إذ أنهم يكتفون منه بموقف التجاهل أو الإهمال أو الإغفال، ومن ثم فإن هذا الموقف منهم يشبه أن يكون اعترافا ضمنيا بصحة هذه النسبة، وهو اعتراف ضمنى يحول بينه وبين الإعلان والتصريح موقفُ الشيعة السياسى من الإمام زيد ومحاولةُ إنكارِ إمامته والتصغيرِ من شأنه بصفة عامة.

أساتذتى الأجلاء:

قلت إن أستاذنا كان بنحاز إلى المنهج انحيازًا تامًا، وقلت أيضا إنه لم يكن يعبد المنهج ولا يقدسه، وقلت كذلك إنه لم يكن يُدخل فيه ما ليس فيه، وها أنا أصل الآن إلى القول بأنه لم يكن على استعداد لأن يتجاهل وجود المنهج إذا ما اكتشفه، ووجد مع هذا شكوكا قوية تلقى على صحة نسبه، وهنا يتجلى لنا ملمح من ملامح عقلية العلماء الأصلاء، فنجد عالمنا شأنه فى هذا شأن أطباء وعلماء التشريح معنِى بما يراه من اكتمال التشريح والوظيفة لا يصرفه عن هذا إنكار نسب، أو تشكيك فى أبوة، وهو يفعل هذا بثقة واطمئنان تجاه ما تفرضه نصوص متكاثرة تحاول أن تشكك فى نسبة المجموع الفقهى إلى الإمام زيد بن على، ومع إقراره بعناصر القوة التى قد تتمتع بها هذه الشكوك فإنه لا يتيح لها أن تصرفه ولا أن تصرفنا من بعده عن دراسة المنهج الفقهى فى كتاب المجموع،

وهو يقول:

«إننا لو سلمنا بأن أبا خالد هو صاحبُ المجموع وأنه من جهده الشخصى لكنه أراد الترويج له فى أوساط الزيدية فَنَحَلَه إمامَهم زيد الشهيد وأحسن فى تدبير الأمر حتى تلقوه بالقبول وجعلوه أساس فقههم وأصولهم وحديثهم، فإن المجموع

نفسه يظل نتاجا فكريا للقرن الثانى الهجرى الذى هو عصر تكوين المناهج الفقهية، وذلك لأن أبا خالد قد مات قبل أكثر من أربعين سنة من نهاية ذلك القرن الذى شهد نشأة هذه المذاهب الفقهية المتعاصرة».

ويقول الدكتور بلتاجى:

«ولم يطعن أحد فى صحة نسبة المجموع إلى أبى خالد نفسه، إنما الطعون السابقة فى صحة نسبته لزيد بن على. فليكن إذاً مِنْ صُنع أبى خالد وتأليفه، فإنه يدخل فى صميم دراسة مناهج التشريع على أنه كتاب فقه وحديث من نتاج القرن الثانى يتضمن أصول خطة تشريعية اعتبرت أساس مذهب إسلامى قرونا متتالية وحتى عصرنا هذا».

أساتذتى الأجلاء:

كان بلتاجى يصدر فى فهمه للفروق بين المذاهب التشريعية عن عقلية رحبة وأفق واسع لا يتقبل الاختلاف فحسب، ولا يطيقه فحسب، ولا يرحب به فحسب، وإنما هو يعتبر العلم بالاختلاف بمثابة جوهر الفقه فى حد ذاته.

وكان أستاذنا يستحضر فى هذا ما روى من قصة طويلة حدثت فى لقاء الإمامين العظيمين أبى حنيفة النعمان وجعفر الصادق رضى الله عنهما فى حضور الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، وما انتهى إليه أبو حنيفة بعد مناظرته للإمام الصادق فى أربعين مسألة من قوله إنه رآه أعلم الناس باختلاف الفقهاء، « فلذلك أحكم أنه أفقه مَنْ رأيت. ألسنا روينا أن أعلمَ الناس أعلمُهم باختلاف الناس»؟

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور بلتاجي نجح فى أن ينبهنا من طرف آخر إلى

جانب غاية فى الذكاء وُفّق إليه سياسيو الإسلام حين جعلوا علم الفقه من حيث هو علم فى مكانة تفوق تحزباتهم، وهكذا فإن ساسة الإسلام المسلمين كانوا واعين لقيمة الاجتهاد في الفروع الفقهية وعيًا لا تتنكر له عداواتهم السياسية الكبيرة، وهو يذكرنا بأن معاوية بن أبى سفيان كان يرسل لعلى كرم الله وجهه مَنْ يستفتيه فى بعض مسائل الميراث المشكلة التى لا يستطيع هو ومَنْ معه أن يجيب عنها، مما حمّل عليًا كرم الله وجهه على أن يقول: «لعن الله قوما يرضون بحكمنا (أى باجتهادنا فى الفروع) ويستحلون قتالنا».

ولا يقف أستاذنا بلتاجى أمام المسلّمات السابقة فى تاريخ التشريع الإسلامى من دون أن يعيد اكتشاف وجوه الصواب والخطأ فيها، ولعلّى أضرب على هذا مثلاً بموقفه من المسلمة القائلة بأن الإمام جعفر الصادق كان يرفض العمل بالقياس، ونحن نجده يقر بهذه الحقيقة لكنه لا يقر بالمسلمة التى ترتبت عليها وسجلها السابقون عليه فى تاريخ التشريع الإسلامى من أن الإمام جعفر الصادق كان يرفض اعتبار الاجتهاد ـ بكل طرقه ـ مصدرا تشريعيا؟ يثبت عالمنا قول الإمام جعفر الصادق: «ما من شيء إلا وفيه كتاب أو سنة»، وقوله: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل فى كتاب الله، ولكن لا تبلغه عقول الرجال»، وقوله: «إن الله تعالى أنزل فى القرآن تبيان كل شيء، حتى والله ما ترك الله شيئا يحتاج إليه العباد، حتى لا يستطيع عبدٌ يقول: لو كان هذا نزل فى القرآن، إلا وقد أنزله الله تعالى فيه».

ولكنه ينتبه إلى أنه يجب أن يُحمل كلام الإمام جعفر الصادق على محامله الحقيقية، وهى أنه كان يرى أن كل ما يحتاج إليه الناس فى مجال التشريع قد تضمنته النصوص على نحو ما، غير أن عقول الفقهاء تدركه أحيانا، وتقصر

عن إدراكه أحيانا أخرى. ويذهب بلتاجى إلى تنبيهنا إلى أن الإمام الشافعى قد كرر هذا المعنى نفسه حين قال بعد ذلك بنصف قرن: فليست تتنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفى كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها.

وهو يذكرنا فى هذا السبيل بأن الإمام جعفراً الصادق كان يقول: إن الحديث يُنسخ كما ينسخ القرآن. وقد بين الإمام الشافعى بعد ذلك ـ وبخاصة فى كتابه «اختلاف الحديث» ـ أن بعض اختلاف الرواية فى الحديث راجع إلى نسخ بعضه ببعض.

❑

وعلى النقيض الظاهر من هذا الجهد الذى بذله أستاذنا حتى نجح فى إثبات وتحديد موقف الإمام جعفر الصادق فى العمل بمطلق الرأى والاجتهاد يأتى تحريره لموقف الإمام جعفر الصادق من الأخذ بقول الصحابى، وهو يعترف بعجزه عن الوصول إلى حقيقة فى هذه الجزئية ويقول: إننا لا نستطيع من كل ما روى عن الصادق وقبلناه أن نستخلص موقفه من «قول الصحابى»، ذلك أن الأمر يحتاج إلى استقراء مواقفه مما رواه من أقوال الصحابة، ولا تتيسر لنا ظروف هذا الاستقراء لضياع معظم فقهه وآرائه الحقيقية.

ومع أن الشيخ محمد أبو زهرة كان يقول بأن الامام الصادق كان يأخذ بقول الصحابى فإن أستاذنا بلتاجى كان يرى أن النص الذى استند إليه الأستاذ أبو زهرة فى قوله بأن الصادق كان يأخذ بفتوى الصحابى بإطلاق لا يكفى لاستخلاص مثل هذه النتيجة الكبيرة بالنسبة إلى الخبر الذى استند إليه أبو زهرة، وكان يرى أن فى قول أبى زهرة تحميلاً لهذا الخبر بأكثر مما يمكن أن يحتمل بينما القول بمثل هذه النتيجة يحتاج إلى تتبع واستقراء لا تتهيأ لنا

ظروفه.

كأنما كان بلتاجي في هذا الموقف ينظر إلى شريحة تحت الميكروسكوب ويقول إن ما يراه من صورة لخلية من نوع ما لا يكاد يقطع له بصورة النسيج لأن عدسات ميكروسكوبه لا تسعفه بالقول بمثل هذه النتيجة.

وقد عُني أستاذنا عناية شديدة بفقه ابن أبي ليلى وينتبه إلى التفريق بينه وبين أبيه عبد الرحمن بن أبي ليلى الذي ولد في خلافة عمر بن الخطاب، وروى عن جمع كبير من الصحابة، ومع أن مذهب ابن أبي ليلى لا يفرض نفسه كمذهب فقهي ذي نصوص متداولة، إلا أن أستاذنا بلتاجي بحاسة المنهجي المدقق يلمح فيما يراه من آثار ابن أبي ليلى ملامح المنهج التشريعي كاملة، وقد برق له سناها، فيبذل جهده ليجمع صورة فقه ابن أبي ليلى من كتاب لأبي يوسف وراويه محمد بن الحسن الشيباني ومن كتب الشافعي والسرخسي والدبوسي وابن قدامة المقدسي وابن حزم الأندلسي وابن رشد القرطبي.

ولا يزال أستاذنا بلتاجي يدرس المنهج التشريعي عند ابن أبي ليلى حتى يصل إلى القول باطمئنان إلى أن ابن أبي ليلى كان في استخدامه للرأي والاجتهاد، يقف على قدم المساواة مع أبي حنيفة وأصحابه، ولم يكن الأساس العقلي - في كثير من آرائه - يقُل من حيث إمكان قبوله عن وجهة النظر التي بنى عليها أبو حنيفة وأصحابه مذهبهم.

❑

أساتذتي الأجلاء:

كان أستاذنا بلتاجي يتمتع بأمانة علمية شديدة، وكانت أمانته تدفعه إلى بذل الجهود المضنية والجبارة من أجل الوصول إلى نص أو أصل أو رأي أو سند أو

تفسير أو شاهد يهديه إلى سبل السلام في معالجته لما يبحث عنه من حقيقة، وعلى الناحية الأخرى كان بلتاجى يواجه بسيل جرار متدفق من الآثار والكتابات التى توثق مذهباً شائعاً ومنتشراً كالمذهب الحنفى، والتى تصور منهج أبى حنيفة فى الفقه والتشريع والإفتاء، وكان عليه مع هذا التدفق أن يبذل نوعاً آخر من الجهود المضنية والجبارة فى الغوص من أجل استخلاص الحقيقة من مناجم الآراء المتجمعة والمتراكمة على مر الأزمان، ولم يكن جهده فى استقصاء واستخلاص الحقيقة من نصوص متراكمة أقلّ إنهاكاً له من جهده فى الغوص فى مناجم التراث، بل ربما كان جهده فى هذه الناحية أكثر مشقة منه فى الناحية الأولى، لكنه والحق يقال نجح فى أن يوظف أدواته توظيفاً صائباً وذكياً من أجل نيل الأوطار.

وإذا أردنا مثلاً على شجاعة بلتاجى فى مواجهة التراث الذى فرضه فقهاء الحنفية على مذهب الإمام العظيم فحسبنا أن نذكر أن بلتاجى كان يجاهر برفضه لتخريج السرخسى لرأى أبى حنيفة واستنباطه أن أبا حنيفة كان يرى أن القرآن معنى فحسب وليس اللفظ العربى جزءا من مدلوله، ويستند عالمنا فى ذكاء إلى أن القول بأن القرآن قديم أو محدث - كما ورد فى استدلال السرخسى - نشأ بعد أبى حنيفة وعصره.

كذلك فإن أستاذنا بلتاجى لم يكن يقبل تخريج السرخسى وغيره من فقهاء الحنفية لرأى أبى حنيفة ورأى صاحبيه فى قراءة القرآن فى الصلاة بغير العربية.

هكذا نستطيع أن ندرك كم كان بلتاجى حقاً محقاً حقّا وهو يقول: «وليس من منهجنا أن نقبل كل ما ينسبه علماء الحنفية إلى أبى حنيفة من تخريجاتهم الخاصة، لأننا لا نقبل من كل ذلك إلا ما تدل عليه أقوال أبى حنيفة نفسه وما

يتفق فى صياغته وموضوعه مع روح عصره واتجاهه».

وقد وفق أستاذنا بلتاجى بعد دراسة إلى استنتاج حقيقة مهمة وهى أن « فقه الراوى» لم يكن مقياسا مستقلا من مقاييس الإمام أبى حنيفة فى قبول أو رفض الأخبار وتأسيس الأحكام عليها.

❑

أساتذتى الأجلاء:

أكون مقصراً فى حق مجمعنا إذا أنا لم أنتبه إلى إيمان أستاذنا بمكانة اللغة من الفقه والتشريع، وهو القائل فى حفل استقباله فى هذا المجمع منذ عام واحد:

«ثبت فى يقينى أن العمل على خدمة هذه اللغة الشريفة عبادةٌ جليلةُ القدر، عظيمةُ الأثر إن شاء الله تعالى فى الدنيا والآخرة، ولا عجب فكل شيء عنده بمقدار، ولم يكن اختيار العربية وعاءً للقرآن الكريم عبثاً أو محض مصادفة، وقد كان من أثر هذا أنّ المثقف العربى يفهم اليوم نصوصًا بليغة قيلت منذ ألف وخمسمائة عام كأنها أُبدعت اليوم، حيث يجد القارئ فيها متعة الإبداع، وسحر البيان، ذلك أن التلازم بين العربية والقرآن الكريم خلع ثوب الخلد عليها، وجعل دراسات القرآن الكريم نماذج حاضرة دائماً فى العقل الجمعى العربى، ومثّل ذلك كلُّه أوثق الروابط بين أفراد وجماعات وأقطار الأمة العربية. وفى هذا ما يدل أعظم الدلالة على خطأ المقولة التى تتردد أحياناً على ألسنة بعض دارسى الإسلاميات الذين يبررون عدم إتقانهم العربية بأنه لا يلزمهم ذلك لأنهم إنما يطلبون العلم الشرعى لا اللغوى، وهذه مقولة باطلة يحمل عليها مزيجٌ من الجهل المركب والقعود عن الواجب المحتم. لأن العلم الشرعى الصحيح لا يُنال إلا بالإمامة فى اللغة، حيث يئول الدرس الشرعى دائماً إلى نص قرآنى معجز، أو

نص من السُنّة الصحيحة التى أوتى صاحبها ﷺ جوامع الكلم. فالفكر الشرعى ينتهى دائماً إلى نص عربىّ مبين، ومن ثم لم يكن عجيبًا أن يكون أول شرطٍ لفقه أحكام التشريع عند أبى إسحاق الشاطبى صاحب «الموافقات والاعتصام» أن يصل الفقيهُ إلى درجة الإمامة فى اللغة.

هكذا كان أستاذنا يقول فى هذا المجمع منذ عام واحد وكان يردف هذا بالتعبير عن أمنية غالية لست أدرى مدى ما كان من حظها على يديه فى عامه الأخير:

«ولعل الأيام المقبلة ـ إن شاء الله ـ تتيح لى أن أكشف فى وضوح عن فكرة نبتت فى ذهنى منذ سنوات مؤداها أن كثيراً من المشكلات والاختلافات فى الأحكام الفقهية الاجتهادية تجد الحل الصحيح لها إذا احتكمنا إلى معطيات العربية ذلك الاحتكام الذى يجمع بين العمق والشمول، وفق الجذور اللغوية فقهاً يرجع أحياناً إلى الأصول السامية التى نبعت عنها العربية».

❑

أساتذتى الأجلاء:

لعلى وصلت بكم إلى حقيقة مهمة فى تاريخ هذا الرجل العظيم وتكوينه وهى أن رحابة الفكر الفقهى الإسلامى قد مكنته من أن يكون كما أشرت فى أول حديثى شخصية ذات أبعاد مثلى، طويلة البال، عريضة الجاه، عميقة العلم، عالية القدر، واسعة الصدر، رفيعة الفكر، بعيدة النظر، كبيرة القلب، رحبة الأفق.

وإنى لأشهد أنى لم أر درْعميّا – على كثرة الألمعيين فيهم – قد حظى بحب أساتذته وتقديرهم على نحو ما كان فقيدنا يحظى به، ولا أظن هذا من اكتشافى وحدى، وإنما التاريخ هو الذى يقول ذلك فلم تشهد دار العلوم على مدى تاريخها كله

عميداً انتخب لهذا المنصب لتسع سنوات سواه، وكان حرياً أن يُجدد انتخابه لتسع سنوات أخرى لولا أنه كان قد أصبح أكبر ممن يُعيِّنون، بل أكبر ممن يُعيِّنون.

أيها الراحل العظيم ...

وددت لو أنك كنت مستقبلي فى هذا المجمع، أو لو أنى كنت مستقبلك فى هذا المجمع، لكن الله شاء لنا غير هذا، ورزقنا مع هذا بأخوة من نوع آخر، فقد دفع بكلينا إلى هذا المجمع جمعٌ من أهل الفضل، وشيء لنا أن يحرر ترشيحنا بعبارته الوفية الوافية الراضية الرضية أستاذ مشترك لكلينا هو الأستاذ الدكتور الطاهر مكى، الذى كانت أستاذتيه لكلينا أبرز ما جمع بيننا من نسب. وهكذا ألف شخص أستاذنا بيننا كما ألفَّ تخصصه الأدبى ما بين تخصصينْا فى الشريعة والطب، ولعل هذا هو المعنى الذى سبق إليه أبو تمام حين قال:

أو يفترق نسبٌ يؤلفْ بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

أساتذتى الاجلاء:

لست أستطيع أن أختم حديثى من دون أن أكرر بعض ما بدأت به فى تصوير علاقتى بالراحل العظيم الذى جمعتنى به تلمذة كان يسميها زمالة، وزمالة كان يسميها أخوة، وصدقة كان يسميها منطقاً، وإعجاب كان يسميه تقديراً، وعلم كان يسميه رحماً، ولست أنسى أن آخر كلماته على هذه المنصة، وقد اختصنى بها وشرفنى، كانت تعبيراً عن هذا الحب كله بتحية صدرت عن قلب كان مفعماً بالولاء، ونفس كانت عامرة بالصفاء، وروح عاشت محملة بالوفاء، وجوارح ظلت حريصة على العطاء، وفطرة ظلت محتفظة بالنقاء، وسيرة عطرة ستظل أبد الدهر مثلاً للعلماء الأولياء الأتقياء الأنقياء الشرفاء الأوفياء الأصفياء.

رحمه الله رحمة واسعة، وألهمنا جميعا الصبر والسلوان.

د. محمد عماد الدين فضلى

سيدى الرئيس

سيدى النائب

سيدى الأمين

الأساتذة الأعضاء

السادة الضيوف

أبدأ حديثى هذا بأن ألخص شمائل هذا الرجل العظيم فى كلمات قليلة فأقول: إنه كان رجلا تمتع بالخلق النبيل والطبع الهادئ والصوت الخفيض والحياء الإيجابى والسمت الجميل والوجه المضيء.

ولست أجد فى تصوير شخصيته خيراً من أبيات ثلاثة قالها سلفنا العظيم الشاعر على الجارم فى رثاء الشاعر الكبير إسماعيل صبرى:

خلقٌ لو يمسُّ هاجرةَ القيظِ	لأمست على الأنام أصيلا
وخلالٌ مثلُ النسيمِ وقد مرَّ	بزهير الرُبا عليلا بليلا
وحديثٌ حلو الفكاهةِ عذبٌ	لم يكن آسنًا أو مملولا

❑

أساتذتى الأجلاء

لست أبالغ إذا قلت إنى عشت أكثر من ربع قرن أحلم بأن أكون إلى جوار هذا الأستاذ العظيم فى محفل من المحافل التى تقودنا إليها اهتماماتنا المتشابهة.. وشاء العلىّ القدير أن ننال واحدا بعد الآخر، شرف الانتساب إلى هذا المجمع العظيم كما شاء جلَّ فى علاه ألا تطول متعتى بجواره إلا شهورا معدودة.

كان الدكتور عماد فضلى واحداً من الذين يؤثرون أن يكونوا من جيل المؤسسين المجيدين على أن يكونوا من جيل اللاحقين المبهرين، وقد استشعر فى نفسه هذه القدرة منذ مرحلة مبكرة، فاتخذ قراره الشجاع بالتحول من الدراسة فى كلية الطب الأم فى قصر العينى إلى كلية الطب الناشئة فى جامعة عين شمس، ولم يكن مثل هذا القرار بالقرار السهل على شاب فى مقتبل حياته يرى مجد المدرسة الطبية الأولى مكتملا بينما العقبات التى تواجه الكلية الناشئة تتوالى، لكنه فى الوقت ذاته رأى أن من غير المنطقى أن يكون بيته مواجها للكلية الجديدة بينما هو بفضل المجموع المتفوق طالب فى الكلية القديمة، وقد استشعر بحس الانتماء للمكان أن للموقع حقا عليه، وجاء هذا الاستشعار ليؤكد شعوره الأعمق بالرغبة فى الانتماء إلى أجيال التأسيس.. وكانت النتيجة السريعة أن أصبح واحداً من مجموعة انتقاها القدر لم يزد عددها على عشرين

ولكنها أصبحت بمثابة المحركات الدائرة ثم الأعمدة الثابتة التى قامت عليها مدرسة الطب الإكلينيكى فى طب عين شمس.. وقد اشتهرت هذه المدرسة بميلها إلى التخصص حتى إنه لم يكن فى جيل عماد فضلى أستاذ فى الطب الباطنى إلا وهو متخصص تمامًا فى فرع من فروع هذا العلم، بينما كانت الكليات الأخرى لا تزال تحفل بأساتذة للباطنة لا يحبذون فكرة التخصص ولا يأخذون بها ولا يَدَعون لها فرصة كى تسيطر على توجهاتهم أو شهرتهم.

وكان الشائع أن يؤخذ على مدرسة عين شمس بعض الميل إلى الإفراط فى روح التخصص، ولكن عماد فضلى وسط هذا الخضم كله كان من قلة نادرة آمنت وآثرت ألا يتم هذا التخصص إلا على مستوى ما نسميه، فى الاقتصاد، بالمستهلك النهائى فحسب.. وهكذا ظل عماد فضلى طيلة حياته الأكاديمية يحارب بكل قوته من أجل بقاء تخصصى الأمراض النفسية، والعصبية فى قسم واحد مع انفراد كل منهما بوحدته الخاصة على مستوى أسرة المرضى والعيادات الخارجية.. وهكذا احتفظت طب عين شمس بالتخصصين فى قسم واحد حتى الآن على الرغم من أن معظم كليات الطب المصرية قد فصلت بين التخصصين فى قسمين مختلفين، وكان عماد فضلى يكرر أن الجهاز الذى يؤدى هاتين الوظيفتين الحيويتين جهاز واحد، ولهذا فإن من التعسف أن نفصل بين التخصصين أو نؤهل اختصاصيا أو استشاريا أو أستاذاً بالعلم فى أحد التخصصين من دون أن نؤهله بالعلم والتدريب فى التخصص الآخر..

وفى مقابل النجاح فى فرض هذا المفهوم فإن عماد فضلى والآخذين بمذهبه صادفوا عزوفاً عن الأخذ بأفكارهم على مستوى آخر هو مستوى تأهيل جرَّاحى

الأعصاب، وقد كان فقيدنا من الحريصين على تأهيل جراحى الأعصاب بدراسة عليا على مستوى الدبلوم مثلا فى الأمراض العصبية والنفسية، وأخذت مدرسة طب عين شمس بهذا الاتجاه حقبة من الزمن، لكن عجلة الحياة المصرية المنتصرة لفكرة الجزر المنعزلة سرعان ما فرضت أو شجعت العدول عن هذا التوجه.. ولم يكن عماد فضلى آسفاً لهذا فحسب ولكنه كان أسيفًا عليه، وظل كذلك حتى تُوفى.

❑

أساتذتى الأجلاء:

ظهر تفوق الدكتور عماد فضلى مبكراً حيث كان أول الشهادة التوجيهة عام ١٩٤٧ فى شعبة العلوم. ومن الجدير بالذكر أن أول دفعة شعبة الأدبى رياضة فى هذا العام كان الدكتور عاطف صدقى، وقد تخرج فقيدنا فى كلية الطب عام أربعة وخمسين وعمل طبيبًا مقيمًا فمعيداً، وكان من أول مَنْ نالوا درجة دبلوم الأمراض العصبية والنفسية من جامعة عين شمس. وفيما بعد هذا عاش حياة أكاديمية متصلة توجها بأن ترأس قسم الأمراض العصبية والنفسية فى الكلية التى تخرج فيها وقضى فيها كل حياته الأكاديمية. وقد ترأس الجمعية المصرية للأمراض العصبية والنفسية وجراحة الأعصاب، كما ترأس الاتحاد العربى للأمراض العصبية، والمجمع المصرى للثقافة العلمية فى إحدى دوراته.

أسهم الدكتور عماد فضلى طيلة حياته الجامعية فى أنشطة الطلاب وأنشطة الدراسات العليا والمؤتمرات العلمية على حد سواء وكان من أبرز أعضاء الهيئات التى تولت تنظيم الموتمر الطبى السنوى لكلية طب عين شمس، وقد ترأس

المؤتمر الخامس من هذه المؤتمرات، وشارك في الإشراف على النشاط الفني والثقافي في كليته، واشترك في إنشاء قسمين مستحدثين من أقسام تلك الكلية هما قسما التخاطب والمسنين، وأسهم في تأسيس قسم الأمراض العصبية والنفسية بجامعة الأزهر. وامتد نشاطه العلمي والأكاديمي إلى جامعات القاهرة، والأزهر،والمنصورة، والزقازيق وأسيوط. وكان عضواً في مجلس كلية الطب بجامعة قناة السويس بعدما شارك في اللجنة التي تولت تأسيس هذه الكلية.

أساتذتي الأجلاء:

قضى الدكتور عماد فضلي النصف الثاني أو النصف المثمر من حياته مشغولاً بقضيتين كبيرتين تصورهما وصورهما متلازمتين، وقد أحرز في كل منهما نجاحا ملحوظاً وإن ظل بطبع المجدين ونزوع المجيدين طموحاً إلى تحقيق نجاح أكبر...

أما القضية الأولى فهي تعديل مناهج الدراسة في كلية الطب، وقد كان عماد فضلي واحداً من الذين جاهدوا حتى تم الأخذ بمبدأ إلحاق خريجي المدارس الثانوية بكليات الطب مباشرة وإلغاء تأهلهم في كلية العلوم بسنة إعدادية، ومع أني أعتقد أن الأخذ بهذا المبدأ كان بمثابة جناية على التعليم الطبي فإني لا أستطيع أن أنكر أن فقيدنا كان يُعول على هذه الخطوة كثيراً من الآمال في تحقيق تطلعاته المتعلقة بقضية أخرى لا تقل أهمية وهي توسيع أو تطويل الفرصة الزمنية المتاحة لدراسة مقررات طب المجتمع في أكبر عدد ممكن من سنوات الدراسة، وقد كان الدكتور عماد فضلي في هذا الإطار من أشد المتحمسين لتجربة كلية طب قناة السويس في التركيز على دراسة طب المجتمع

والإكثار من مقرراته، وصبغ المناهج والمقررات بكل ما هو ممكن من الصبغات المجتمعية. ومع أن الأوان لا يزال مبكراً لتقييم مدى نجاح هذه التجربة فإن تاريخ التعليم الطبى سيذكر لعماد فضلى ولمجموعة من زملائه على رأسهم أستاذنا الدكتور محمد صادق صبور الجهود الدائبة والمخلصة فى هذا الصدد .

❑

كانت القضية الكبرى الثانية التى عُنى بها عماد فضلى هى إعداد أساتذة الجامعة ويمكن القول بأنه كان واحداً من أكثر مَنْ يعود إليهم الفضل فى تطوير فكرة إعداد المدرس الجامعى، من خلال مجموعة من المحاضرات واللقاءات شارك فيها مع صفوة ممتازة من أساتذة الجامعة الذين آمنوا بقيمة فكرة الأستاذية فى حد ذاتها، وبمسئولية هذه الفكرة بصرف النظر عن التخصص، وقد أدرك عماد فضلى منذ مرحلة مبكرة أن الفكرة فى حاجة إلى أن تُقدم وتبلور وتتمثل وتتجسد من خلال أشخاص مؤمنين بها وعاملين من أجلها، وهكذا فإنه وهب كثيراً من الساعات الذهبية فى حياته لتقديم خبراته إلى الأجيال التالية من شباب هيئات التدريس من خلال برامج إعداد المدرس الجامعى فى جامعة عين شمس، وكان كالعهد به ملتزماً، ومنظماً ومنظراً. وقد ترك من خلال أدائه الفذ فى هذا البرنامج بصمات رائعة يفخر بها جيل كامل من أساتذة الجامعة، ويذكر أفراد هذا الجيل فى الكليات المختلفة له فضله وفكره وخلقه، بل ويتطلع معظمهم إلى أن يكون نظيراً له فى نشدان الإخلاص والتعالى والشموخ.

كان عماد فضلى من الأطباء القادرين على الاستحواذ على ثقة مرضاهم، وأظن حضراتكم تدركون أن الجانب الآخر لهذا الخلق يمثل خطراً على موارد الطبيب لأنه يتبلور تلقائياً فى استحواذ هؤلاء تدريجياً وبسرعة على وقته، وهو ما حدث فى حالة فقيدنا العظيم، حتى لقد أصبح فى مرحلة مبكرة بالنسبة لأقرانه غير قادر على أن يستقبل مرضى جدداً أو أن يخرج عن إطار ما يمكن لنا أن نسميه بالالتزام المؤبد بمرضاه. وليس من شك أن «محبس» الطبيب قد حال بين عماد فضلى وبين مواصلة كثير من المجد الذى كان قد حقق خطوات واسعة فيه فى مطلع حياته.. لكن المجتمعات العلمية عوضته عن مواصلة الذيوع والشيوع بالارتقاء به إلى المواضع التى تغنى العلماء عن كل شهرة، وقد كانت قمة التتويج لجهوده أن انتخب عضواً فى مجمع اللغة العربية عام تسعة وتسعين، وشِيء له أن يشغل كرسى سلفه الدكتور أبي شادى الروبى وأن يعمل إلى جوار الدكتور حسن على إبراهيم، وكان عماد فضلى أول مَنْ وصل إلى عضوية المجمع من خريجى مدرسة طب عين شمس، وإن سبقه من الأطباء أول مديرى هذه الجامعة الدكتور محمد كامل حسين، وأبرز عمدائها الدكتور أحمد عمار.

وحين أتيح لعماد فضلى أن يعبر عن نفسه فى حفل استقباله عضواً فى مجمعنا فإنه أخذ يتلمس فى تاريخ نفسه ما أهله لهذا المجد، وهكذا أخذ بقلب الطفل الكبير يستعرض من هذا التاريخ الطارف والتليد، والظاهر والعميق، والنادر والغريب. والحق أن ممارسته للتعليم، وامتهانه للطب، واهتمامه

بالموسيقى، وشغفه بالأدب، وإدمانه للقراءة، وحبه للمجد، وإخلاصه للوطنية قد تضافر جميع ذلك حتى كوّن منه شخصية ترقى إلى مصاف المجمعيين، ولا تخرج عن إطارهم.

❑

أساتذتى الأجلاء:

عاش الدكتور عماد فضلى حياة حافلة بالأحداث والعمل ولكنها كانت أقل حفولاً بالناس، وكانت تجاربه المبكرة تدفعه إلى الإحجام عن ولوج كثير من معتركات الحياة، وعلى سبيل المثال فإنه آثر الابتعاد عن المشاركة الدائبة فى المقالات التى يحرص بها أصحابها على تقريب الثقافة العلمية للجمهور، وكان هذا الابتعاد قراراً اتخذه بعد تجربة مبكرة مرت به، وهو يحكى فى مقدمة كتاب له عام ١٩٩١ فيقول:

«عندما طُلب منى أن أقدم كتابا فى الأمراض العصبية والنفسية للقارئ غير المتخصص، كنت أميل إلى الرفض منى إلى القبول إذ صدمتنى تجربة سابقة حاولت فيها توجيه النظر إلى الأعراض المبكرة لأحد الأمراض النفسية بأمل أن أنقذ المرضى إذا هم طلبوا العلاج مبكراً، إلا أن النتيجة كانت على النقيض، فقد انهالت علىّ أفواج من الناس كان كل ما يعانون منه قابليتهم الشديدة للإيحاء، ولم أجد بينهم إلا النزر اليسير ممن قصدتهم بمقالى، فعاهدت نفسى ألا أقرب بعد ذلك وصف الأعراض المرضية، كما عاهدت نفسى ألا أصف أى علاج عبر وسائل الإعلام الجماهيرية، إذ أن هواية ممارسة الطب منتشرة انتشاراً مذهلاً بين مواطنينا المصريين بل وكثيرا ما أخذ بعضهم يصف لى علاجات لإصلاح حالتى الصحية!».

ظل عماد فضلى لفترة طويلة على رأس مَنْ كانوا ينادون بالتريث فى استخدام التكنولوجيات الطبية الجديدة حتى أتيح له أن يكون ضمن مجموعة الذين اشتركوا فى إدخال أول جهاز للأشعة المقطعية، وهو يحكى تجربته فى هذا المجال فيقول:

«أذكر أن مجموعة من أطباء الأمراض العصبية والنفسية وجراحى الأعصاب تبينوا أهمية جهاز فحص المخ بالأشعة المقطعية، وأنه يمثل فعلا منعطفا مهمًا فى التشخيص. وكانت الظروف المالية للمستشفيات الجامعية وقتها لا تسمح باقتناء مثل هذا الجهاز، فتعاونا لشراء أول جهاز دخل جمهورية مصر، ونحن نعلم أن هذا المشروع فاشل من الناحية الاقتصادية إلا أننا شعرنا بخطورة التخلف عن هذا الفتح الجديد أكثر من ذلك، إذ أنه كان مستخدما لمدة سبع سنوات قبل قيامنا بالمشروع. ثم اتفقنا على مراجعة الحالات إكلينيكيا فى ضوء معطيات هذا الجهاز، واكتسبنا من ذلك خبرات غالية سواء فى حسّنا الإكلينيكى أو فى تحديد مزايا هذا الجهاز.

وقد نبهَنا عماد فضلى فى مرحلة مبكرة إلى الأثر الذى يمكن للسياسات العامة أن تلعبه وتؤثر به على المستوى العلمى لأساتذة التخصصات الطبية المختلفة، وهو يضرب على هذا مثلاً شديد التعبير عن الواقع حيث يقول:

«وبعد بدء مشروعنا بستة أعوام ذهبنا إلى مؤتمر عالمى فى اليابان، وكنا نظن أننا سنكتشف الفجوة القائمة بيننا وبين الدول المتقدمة، إلا أننا نعمنا باطمئنان وثقة بعد حضورنا لهذا المؤتمر إذ تبيناً أننا عند المستوى العالمى، وأننا عوضنا تأخرنا السنين السبع التى مرت قبل بدء مشروعنا، بل أكثر من ذلك،

فقد تبينا أن سبب ما وصلنا إليه من استفادة يرجع إلى الحوار الدائم بين التشخيص الإكلينيكى والصور التى يقدمها لنا الجهاز. وكان هذا السبب واضحا جدا عندما لمسنا الفارق الكبير بين أطباء الأعصاب اليابانيين وبين أطباء الأشعة اليابانيين، فقد ظهروا وكأنهم يعيشون فى بلدين مختلفين، فالمستوى المتواضع للأطباء لا يوازيه أبدا المستوى المحلق لأخصائى الأشعة. ولما سألت فى ذلك رئيس المؤتمر - خوفا من أن يكون استنتاجى راجعا إلى صعوبة اللغة الإنجليزية التى يستخدمها اليابانيون - طمأننى إلى أن حاجز اللغة ليس هو السبب، بل هو انعدام الحوار بين الفريقين. ذلك لأن الدولة تهتم بالتكنولوجيا الطبية إذ أنها تصدرها إلى الخارج، أما الممارسة الطبية فالاهتمام بها أقل لأسباب الفلسفة الاقتصادية التى تتبعها اليابان، مما جعل الحوار بين الفريقين شبه منعدم. وقد شكا لى هذا الرئيس - وكان نرويجيا - من أن ذلك سبب له متاعب جمة فى تنظيم هذا المؤتمر لم تقابله عند تنظيم مؤتمرات مثيلة فى بلاد أخرى».

❑

أساتذتى الأجلاء:

عاش عماد فضلى حياته المهنية الناجحة مؤمناً بالطب النفسى وبأهميته، بل بحتميته إذا جاز هذا التعبير. ولست أبالغ فى هذا بل ربما كنت عاجزاً عن التعبير الدقيق عن مجال إيمانه بالطب النفسى وجدواه وحتميته، ولعلى أستشهد على ما أقصد إليه بفقرتين من حديث له عن مرض الاكتئاب حيث يقول:

«.... وفى الاكتئاب لا تُجدى تعزية ولا مواساة ولا ترفيه - خصوصا فى مراحله الأولى، بل قد تزيد تلك المحاولات من معاناة المريض، إذ يفسرها بأنها نوع من لوم الآخرين له، وأن هؤلاء الآخرين لا يشعرون بمدى معاناته وبقسوة مأساته».

«يحتاج الاكتئاب إلى علاج سريع وجاد بالأدوية، وقد يحتاج إلى جلسات الكهرباء. أما الحزن فيحتاج إلى تعزية ومواساة وترفيه، وقد يحتاج الحزين إلى بعض الإرشاد النفسى فى شكل علاج نفسى بسيط، يعيد الحزين إلى أنشطته الاجتماعية واهتماماته السابقة، فإذا هو مرةً أخرى ماضٍ فى طريق حياته العادية».

❑

أساتذتى الأجلاء:

قُدِرَ لعماد فضلى أن يعيش حياة العالم الذى تتطور معارفه مع الأيام فى اتجاه البحث عن الحقيقة ومعرفتها ونقلها للآخرين، وقد ظل حفياً بالحديث عن تطور تشخيص الأمراض النفسية، والثورة التى حدثت فى هذا المجال باستناد هذا التشخيص إلى التغيرات الكيميائية، وكان ينبه إلى أن الخريطة المبينة لأماكن هذه الإصابات، وأنواع الكيماويات المسئولة عنها قد وصلت إلى مرحلة من الدقة كافية لتشخيص هذه «الأمراض» تشخيصا دقيقا إلى درجة عالية لم نكن نحلم بها، وكان عماد فضلى يكرر فى كثير من المحاضرات العامة قوله إن «الدنيا تغيرت» فى مجال هذه «الأمراض النفسية». فلم يعد يكفى أن نفسرها

«منطقيا» على أساس تصورات فلسفية و فرضيات لا تقوم على البحث العلمى والتجريب، وإلا عدنا إلى ما يشبه التفسير القديم «للملاريا» بأنها تنشأ عن فساد الهواء، فساد "Mal" وهواء "Air"..

ولم يكن عماد فضلى يكف عن مطالبته الأطباء والمثقفين بإعادة تثقيف أنفسهم بالحقائق الجديدة مشيراً إلى أنه ليس من المعقول الإبقاء على فروض فلسفية مضى زمنها، مهما كانت «مريحة» للعقل، و«لذيذة» كموضوع للنقاش، أو صالحة لبناء قصص درامية وأفلام سينمائية ومسلسلات تليفزيونية. وكان ينبه إلى أن هذه اللذة العقلية والتطبيقات الدرامية وقفت زمنا طويلاً - وما زالت تقف إلى الآن - عائقا ضد التصور الصحيح لهذه «الأمراض» بين أفراد الجماهير، خصوصا «المثقفين» منهم - الذين يستهويهم تطبيق ما يقرأونه من كتابات نفسية زخرت بها المكتبة النفسية فى أوائل القرن العشرين، وبخاصة أن تلك الكتابات توحى لقارئها أنه قادر على تشخيص وعلاج أمراضه النفسية وأمراض الآخرين، ما دام يعرف أن الحرمان من الرضاعة أو التدريب القاسى على التحكم فى «التبول والتبرز»، أو الحرمان من الممارسات الجنسية تؤدى إلى حدوث الأمراض النفسية فى سنوات العمر المقبلة.

❑

وكان عماد فضلى يحذر من أننا إذا عدنا إلى هذه التفسيرات المريحة فسنضيِّع على المريض فرصة الشفاء الذى أصبح متاحا إلى درجة لا تختلف عن باقى أنواع الأمراض فى فروع الطب الأخرى، وكان ينبه إلى أن المستشفى النفسى قد أصبح الآن مفتوح الأبواب - له عيادة خارجية واستقبال.

أساتذتى الأجلاء:

كان عماد فضلى طرازاً من المثقفين الحقيقيين الذين أفادت منهم الممارسة الطبية، وقد ظل طيلة حياته يوظف معارفه الفلسفية فى خدمة مهنة الطب العصبى على نحو رائع لا يتأتى إلا لأمثاله من المثقفين المتخصصين، وليس أدلَّ على هذا من حديثه الدافئ فى هذه الفقرة التى يناقش فيها دور النشاط الذهنى فى الوقاية من الإصابات الدماغية بالاحتشاء، وهو يفرق بين نوعين من النشاط الذهنى: نوع يُفْرضُ علينا فرضا، وتقابلنا فى أثناء أدائه عقبات وإحباطات ويؤدى إلى توترنا بل إصابتنا بنوع أو آخر من الاكتئاب. ونوع آخر نحقق فيه ذاتنا ونصقل فيه مواهبنا وننتج ونبدع ونبتكر، ونفرح ونبتهج ونحن نؤديه.

وهو يقول: «إن النوع الأول مُضِرٌ ويسرع بنا الخطى نحو تصلب الشرايين، وهو سبب هام من أسباب ما يسمى «بالإجهاد النفسى» أو «الكرب النفسى» - وهو مهلك، ويقع فيه مَنْ يتصور أن الطموح يعنى طلب ما يزيد عن الطاقة أو الإمكانات التى وهبها له الله، فيقع فى تنافس مع مَنْ لا يستقيم التنافس معه، أو يجرى وراء مطالب مادية يمليها عليه المجتمع، فيجد نفسه يجرى وراء ظله، ويستولى عليه الجشع ولا يشعر بلذة ما حقق من مكاسب مادية قدر ما تذهب نفسه حسرات على ما لم يستطع أن يصل إليه من تلك المكاسب. وهناك فئة أخرى تغريها قدرتها على بعض النشاط السياسى أو الإدارى لما يحيط به من هالات الشهرة والسلطة، وتنسى مواهب أخرى أهم وأقوى وهبها الله لها، فتترك

تلك المواهب لتذوى، وتضيعُ سنوات العمر دون أن تحقق شيئًا، ولو فعلت لأرضت نفسها وربها والناس. ويمضى هؤلاء يهرولون وراء منصب أو مركز يهلكون أنفسهم فيه جهداً ونضالاً حتى إذا فرَّت الأعوام من أيديهم وجدوا حصيلتهم صفرا، خصوصا عندما ينفضُّ المولد، ويتركهم حشم الأمس وحيدين يجترون آلام المعركة التى لم تؤد إلى مكاسب حقيقية، وينظرون إلى مستقبل لا يَعِدُ بشىء ذى قيمة».

ثم يلتفت عماد فضلى ليتحدث عن النوع الثانى من النشاط فيقول: «إنه يظل مصدرا للرضا النفسى وبهجة الابتكار والتجديد والتطلع إلى المستقبل مهما طال العمر، فكل خطوة تمهد لما بعدها، ولا يهم الإنسان منها إلا لذة العطاء والابتكار والتجديد، حتى إذا مضت الأعوام وجد وراءه ماضيا سخيا يهنأ له تَذَكُّره، بل ووجد ثمرات تنبت ويشتد عودها فى مستقبل الأيام حتى من غير أن يضعها فى حسبانه. إذ أن البلد الطيب يخرج نباته طيبا بفضل الله وبالنيات الطيبة، وبالعطاء أولا دون النظر إلى الأخذ والتسلط، تلك سنة من سنن الله تغشى عنها الأبصار كثيرا بفعل الملوثات الفكرية التى تسود أحيانا، إلا أن سُنَّة الله لا تبديل لها ولا تحويل، ومن اتبعها كُتبت له حياة طيبة وشرايين تقاوم التصلب ودماغ لا يقبل التدهور بسهولة».

هكذا كان عماد فضلى يعتقد، ويعبر عن اعتقاده ... ثم هو يردف هذا المعنى الدقيق فيقول:

«وليس كلامى هذا من باب التلاعب بالألفاظ أو التجاوز اللغوى، بل قد أثبتت التجارب العلمية أن الأشخاص الذين يثابرون على استخدام إمكاناتهم

الذهنيـة الابتكارية فى جو من الهواية أكثر من الحرفة وتنافساتها وهمومها، تستطيع خلايا دماغهم أن تتجدد. وأقول تتجدد، وقد كان المعروف إلى وقت قريب أن خلايا الجهاز العصبى هى الخلايا الوحيدة فى الجسم التى تستمر مع الشخص من مولده إلى وفاته، ولا تضاف إليها خلايا جديدة بخلاف الجلد والأمعاء والدم».

❏

«وإذا علمنا أن هذه الاتجاهات الفكرية تُغرس أسْهلَ ما تُغرس فى سنين التكوين المبكرة، أى فى مراحل الطفولة والصبا والمراهقة، فيمكننا تبين أهمية القدوة الحسنة والتوجيه السليم للأبناء فى هذه المراحل، بحيث نكتشف القدرات الحقيقية لأبنائنا ونعمل على تنميتها بغض النظر عن «الموضات» السائدة فى المجتمع. فنشجع مَنْ نتبين قدراته الفنية أو الأدبية مثلاً، ولا نفرض عليه التوجه إلى ما لا يستثير همته من علوم أو رياضيات بحجة أن هذه النواحى من المعرفة هى التى تلقى احترام المجتمع وتقديره، بل علينا أن نتبين فى وضوح أن الأديب المتميز أهم وأصلح لنفسه ومجتمعه من المهندس الفاشل. فنحن إذا ما أحسنَّا تربية أبنائنا كما رسم لنا ديننا القويم وكما أوصت علوم التربية، بحيث تنضج الشخصية متكاملة، وقد تفجرت كل إمكاناتها وصقلت كل مواهبها، وبعدت عن مثالب الغرور والكبر والحقد، والتزمت درب العطاء والإيثار والرضا، فنحن نمهد لأدمغة هؤلاء الأبناء الطريق المستقيم نحو الصحة والتجدد ومقاومة الجلطات والاحتشاء، والتمتع بحياة طيبة معها أمل قوى فى حياة آخرة طيبها ليس كمثله شىء».

أساتذتى الأجلاء:

بقى أن أحدث حضراتكم عن جانب من جوانب شخصية عماد فضلى لا أدرى ما الذى دفعه إلى تأجيل نشر دراساته فيه، فمنذ ربع قرن كنا نتحدث فى أدب الدكتور محمد كامل حسين بعد أن قرأ عرضى وتلخيصى لبعض قصصه القصيرة وتعليقى على توظيف كامل حسين للمعارف السيكولوچية فى هذه القصص وإذا به يطلب منى صورة من النصوص الأصلية لهذه القصص التى كانت قد نشرت فى المجلات ولم تنشر فى كتب، واستطرد يحدثنى عن أنه بحكم الدراسة والعمل مندهش لما كان محمد كامل حسين يتمتع به من وعى شديد بما توصل إليه طب النفس فى سنواته الأخيرة، وقال إنه ينوى الكتابة عن هذا الجانب، والحق أنى لم أقصر فى تزويد أستاذى بالصور الضوئية لهذه القصص وعشت أتطلع إلى أن أقرأ له مثل هذه الدراسة القيمة، ويبدو لى أنه أنجز بعض مسودات هذه الدراسات، ودليلى على هذا ما لمسته من تمكن الفكرة من نفسه إلى الحد الذى تعبر عنه فقرة كتبها ليصف فيها بعض ملامح مرض الاكتئاب حيث يقول:

❑

«ونلاحظ أن الضيق الذى يشكو منه المريض تتراوح شدته بين ساعات اليوم المختلفة، ففى أحد أنواعه يزداد هذا الضيق فى الساعات الأولى من النهار، فتكون كما قال ناجى:

فإذا النور لهيب طالع وإذا الفجر مطل كالحريق

وفى أنواع أخرى نجد الضيق يشتد قرب الغروب».

أساتذتى الأجلاء:

لست أستطيع أن أبرح مكانى هذا دون أن أشير إلى ما كان فقيدنا يتمتع به من حس أدبى ونقدى متميز، ولو أنه وظف هذا فى الكتابة لبزَّ الكثيرين ، ويكفى للتدليل على تفوقه فى هذا الجانب أن أشير إلى بعض التعبيرات التى كان يرددها من قبيل قوله إن أورام المخ ارستقراطية، أو قوله أنت تنفعل كيمياويا، وتفكر كهربيا، أو وصفه للشلل الوجهى بقوله: عندما يضحك المريض بنصف وجه، أو قوله: للمخ شبكتان للرى، وقوله: إن التدخين عادة وليس إدماناً.

وكان عماد فضلى فى كتاباته الطبية يكرر باعتزاز وحب كثيراً من التعبيرات الدينية التى يتداولها الفقهاء والدعاة من قبيل: أقول قولى هذا.... وكان فى هذا الجانب يعبر عن التزام دينى ظل ناعما به طيلة حياته.

وإذا جاز لى أن أعبر فى كلمات سريعة عن مجمل شخصيته فإنى أكرر ما أشرت إليه فى مقدمة حديثي هذا عنه من أنه كان رجلا تمتَّع بالخلق النبيل، والطبع الهادئ، والصوت الخفيض، والحياء الإيجابى، والسمت الجميل، والوجه المضيء، كما أني لا أجد فى تصوير شخصيته خيراً من الأبيات الثلاثة التى قالها سلفنا العظيم الشاعر على الجارم فى رثاء الشاعر الكبير إسماعيل صبرى:

خلقٌ لو يمسُ هاجِرةَ القيظِ ... لأمست على الأنام أصيلا

وخلالٌ مثلُ النسيمِ وقد مرَّ ... بزهير الرُبا عليلا بليلا

وحديثٌ حلو الفكاهةِ عذبٌ ... لم يكن آسنًا أو مملولا

الباب الثانى

فى احتفاليات الجمعية الخيرية الإسلامية بروادها

- الأستاذ أحمد لطفى السيد
- الدكتور عبد الحميد بدوى
- المستشار محمد بدر المنياوى
- الإمام محمد عبده
- الشيخ مصطفى عبد الرازق

أحمد لطفى السيد

السيد الأستاذ الدكتور رئيس الجمعية الإسلامية

السادة الزملاء

الضيوف الكبار

يمتاز أحمد لطفى السيد عن أقرانه جميعًا بمكانة الأستاذ الأول، فقد حرك الفكر الوطنى فى اتجاهات كثيرة محددة، وظل يرعى التوجهات التى دعا إليها، فى هدوء شديد كان مرجعه فى الغالب ثقة شديدة فى النفس وفى الأفكار التى دعا إليها؛ وقد اتضحت قيمة أفكار لطفى السيد وقيمة معالجته لها عندما توالت موجات من الفكر على الحياة الفكرية المصرية، الحديثة والمعاصرة، ولكنها مع ما لقيت من ذيوع وانتشار وترحيب وحماس، لم تلق ما لقيته أفكار أستاذ الجيل من صمود للزمن ولعوامل التعرية على حد تعبير علماء الطبيعة، ومن ثم بقيت للطفى السيد، مكانته على مدى القرن العشرين كله.

ولعل أبرز ما كان من عوامل الخلود فى فكر أحمد لطفى السيد، أنه لم يؤسس توجهاته على أن يكون خصيمًا لأحد، وهكذا لم يحصر نفسه فى أن يكون مجرد مضاد لاتجاه أو يكون بمثابة ترياق من اتجاه آخر، ومن ثم فإنه ظل موجودًا حتى بعد انتهاء العهود التى ازدهر فيه فكر مخالفيه.

ولست فى حاجة إلى أن أضرب أمثلة على أن صاحب الذكرى لم يكن خصيماً لأحد على وجه التحديد، ولكنى أستطيع أن أنتزع من حضراتكم، شبه موافقة على هذا المعنى حتى وإن كان هناك تحفظ على جزئية أو أخرى، ولكن مثل هذا التحفظ فيما أظن لا يغير من الحقيقة الكبرى فى هذا الموقف.

❑

أساتذتى الأجلاء

نأتى بعد هذا إلى خاصة مهمة فى فكر أحمد لطفى السيد، وهى إيمانه بفعل الزمن، ولعلى أزعم أنه لم يكن هناك من معاصرى أستاذ الجيل واللاحقين به، من آمن مثله عن يقين بتأثير الزمن، ولعلى أزعم أيضًا أنه لم يكن هناك من معاصرى أستاذ الجيل واللاحقين به، من آمن مثله بتأثير الزمن كما آمن هو، ولربما كان العمر الطويل الذى منحه الله مكافأة منه سبحانه وتعالى على إيمانه بدور الزمن.

ونحن جميعًا نعترف بالزمن، بدرجة أو بأخرى، وإن كان بعضنا يكابر أو يحاول أن يكابر، ولكننا لا نؤمن به على نحو ما آمن لطفى السيد، ولو أننا آمنا به على نحو ما آمن، لأسقطنا من تعبيراتنا وصياغاتنا كل الجمل التى تقول بالحتمية وبالضرورة الزمنية، ولأسقطنا من أوصافنا كل ما يعبر عن الظن بأن الفترة التى نعيشها هى بمثابة أحلك الفترات أو أمجدها أو أحفلها بالتحول التاريخى. وهى تعبيرات درجنا على استعمالها حتى فقدت

كل ما فيها من معنى، ولو أننا نهلنا من لطفى السيد حقيقة، لأدركنا أننا جميعًا لسنا إلا حلقات من حلقات ممتدة قبلنا وبعدنا، وأن التطور سائر وصائر إلى الأفضل بكل تأكيد، وقد كان لطفى السيد يؤكد رغم استنكار مستمعيه أن الأجيال تمضى إلى الأفضل، وأن الجيل الحالى أفضل من الذى سبقه، وأن الجيل التالى سيكون حتماً أفضل من الحالى.. ومع أنه كان فى وسع أستاذنا لطفى السيد أن يؤسس من أقواله هذه مذهبًا أو نظرية فى ارتقاء الجنس البشرى بفعل الزمن، إلا أنه - وهذا مكمن من مكامن عظمته - آثر أن يترك نظراته على أنها أقوال مرسلة فحسب.

❏

من ناحية ثالثة فإن أحمد لطفى السيد لم يعن أبداً بالتدوين، وظنى أنه كان حريصاً على المرونة الفكرية التى لابد وأن تفقد بعض خصائصها، بل بعض هويتها عندما يصبح هناك نص واضح مقيد وملزم، لأنه مكتوب ومحدد ومؤطر، ويصبح ما عداه بالتالى خارجاً عن الإطار الفكرى لصاحبه.

كأنى بأستاذ الجيل كان يستشرف تجارب الإنسانية كلها، ولهذا آثر أن تأخذ أستاذيته طريقها إلى تلاميذه عن طريق التشرب والامتصاص، وأن يكون فى سلوكه وأدائه وتعليقاته بمثابة الإشعاع، محققًا بهذا صورة عصرية من صور القدوة، ومحققاً أيضاً صورة جديدة من صور «القطب»، وظنى أنه فى تحقيقه لهذه الصورة ولتلك كان نموذجاً للتجسيد الذى يتمتع بخفة الظل.. ويستبدلها بصورة التجسيد كثيف الوجود.. وظنى أيضًا أن الرجل قد نجح فى هذا التجسيد نجاحاً منقطع النظير.

من ناحية رابعة فإن أحمد لطفى السيد كان يؤمن بأن فى الامكان تحقيق الأهداف النبيلة دون إعلان للحرب، وقد نجح من خلال إدارته للجامعة فى فرض كثير من مظاهر الروح الليبرالية على الحياة العقلية فى

مصر دون أن ينتبه أعداء الليبرالية لنار المعرفة التى جعلها تسرى بهدوء فى هشيم متراكم من عصور سادتها جهالات لم تجد من يطهر منها الفكر المصرى الحديث (برافديه الإسلامى والإنسانى، وهما بريئان مما تراكم بفعل الزمن) وعندى أن هذا الجهد الحثيث الذى بذله أحمد لطفى السيد فى هذا الصدد سيظل أخلد أعماله على الرغم مما حدث من طغيان اتجاهات شمولية قاتلة بدأت منذ أواخر عهد الملكية واستمرت طيلة عهد الثورة..

ولست أحب أن أفيض فى ذكر كثير من الأمثلة لتوجهات أحمد لطفى السيد الحكيمة فى إدارته الجامعة ولكن يكفينى من هذا أن أشير مجرد إشارة إلى أسلوبه الهادئ فى قبول الفتيات فى الجامعة.

❑

أساتذتى الأجلاء

أوتى أحمد لطفى السيد حظاً لم يؤته غيره فى اختيار تلاميذه ومريديه، ولست أحب أن أكرر على أسماعكم أنه كان أستاذاً مباشراً أو شبه مباشر لكل من تعرفون من كل قمم الحياة السياسية والأدبية والفكرية والفلسفية والصحفية المعاصرين له والتالين، ولكنى سأذكر لكم أمراً آخر وهو أنه كان يصطفى ويحتضن من أساتذة العلوم الطبيعية والطبية أسماء أثبت الزمن مدى قيمتها الفكرية على مدى العقود التالية، ومن العجيب أيضاً أنه قدمهم للمجتمع الارستقراطى فى مصر فى مرحلة مبكرة من عمرهم، بل وزكاهم لعضوية المجامع اللغوية والعلمية والفكرية، وهكذا كرس لطفى السيد أستاذيته الحقيقة للجيل.

وليس أدل على ذلك من أن نذكر أنه كان من أبرز مريديه كل من : المفكر المصرى الكبير محمد كامل حسين جراح العظام الكبير والمدير الأول لجامعة عين شمس، والعالم الكبير العظيم أحمد زكى مدير جامعة القاهرة

ومؤسس ورئيس تحرير مجلة العربى، وعالم النبات الأشهر عبدالحليم منتصر نقيب العلميين ومؤسس جامعة الكويت، وقبل هؤلاء جميعاً فقد كان وكيله فى الجامعة المصرية هو عميد الطب العظيم على باشا إبراهيم، وكذلك كان عميد العلوم العظيم على مصطفى مشرفة باشا.

ولن أفيض فى ذكر أسماء كثيرة من طراز هؤلاء، ولكنى أظن أن هذه العينة تكفيكم للدلالة على القيمة الفكرية لهذا الأستاذ الذى كان رأساً ورئيساً حقيقياً للجامعة، بكل ما تعنيه الجامعة من معارف، وأنا أقول هذا وفى ذهنى ما حدث فى مؤتمر ضخم اجتمع وانعقد فى القاهرة منذ أسابيع قليلة وجمع مئات من السيدات والرجال من العالم العربى كله، ولكنه، أى المؤتمر، ظن أن إنجاز المرأة لا يتعدى حقول الأدب والاجتماع، على حين أن المرأة المصرية قد أنجزت بفضل لطفى السيد فى الطب والتمريض والعلوم والهندسة والاقتصاد أكثر وأعظم مما أنجزته فى أدب يرى كثيرون أنه لا يزال فى مراحله الأولى ولا يزال فى مجمله مشكوكاً فى قيمته.. وقد بقيت أعاود النظر فى هذا الذى رأيت من إنحياز سافر وغير مبرر إلى جانب من المعرفة والسلوك الإنسانى وأنا أتعجب لما أرى ولا أستطيع أن أبتسم، وعندئذ اتضحت لى قيمة لطفى السيد مكبرة مضخمة حين رأيت الذين يظنون أنفسهم أحاطوا علماً وقد انعزلوا فى مجالات ضيقة.. وعجبت كيف كان لطفى السيد منذ تسعين عاماً أرحب فكراً، وأحد نظراً، وأذكى قريحة.. ولهذا ظل دوره الفكرى حتى هذا اليوم شاغراً لأن أحداً من الذين جاءوا من بعده، لم يؤمن بالمعرفة والعقل كما آمن، ولم يتيقن منهما كما تيقن لطفى السيد.

فما بالنا وقد أضاف لطفى السيد إلى إيمانه بالمعرفة وبالعقل إيماناً آخر بالزمن، وما بالنا ولطفى السيد كان قبل هذا كله تعبيراً حياً عن إنسان عظيم ارتسم فى ملامحه كل ما يدل على أنه سليل حضارة عظيمة أعطت للإنسان من قيمة ما لم تعطه حضارة أخرى !!

يدعونى الموقف إلى حديث سريع عن أسلوب لطفى السيد حين كتب مذكراته وهو فى مرحلة متقدمة من العمر، والواقع أن مذكرات لطفى السيد تبدو عجيبة إلى حد بعيد، وربما تبدو عسيرة الفهم فى إطارها العام، ذلك أنها لا تعبر عن حياة عريضة إلا بلمحات خاطفة، كما أنها لمحات خالية من جرأة متوقعة، لكننا لا نستطيع أن نفهمها إلا على نحو ما ألفت، أو كوّنت.. وقد كونها كاتبها (أياً من كان) باقتدار شديد من موضوعات كتبها صاحب الحياة قبل هذا، ولم يبخل عليها الكاتب ببعض فقرات ربط تلقى الضوء على المراحل المختلفة من حياة صاحبها.

وربما يصدق على مذكرات لطفى السيد التى نشرتها دار الهلال القول القائل بأن بعض أصحاب المذكرات لم يكتب من أجلها أكثر من عشر صفحات على أكثر تقدير، واستعان بأرشيف مقالاته القديمة ليكمل بها المذكرات.. وعلى الرغم من هذا الطابع الواضح فى بنية المذكرات فإن المذكرات تبدو متكاملة ومتماسكة ومعبرة عن مجمل حياة الرجل، وإن كان الرجل فى تصورنا أكبر بكثير جداً من هذه المذكرات، وإن كانت حياته أيضاً أكبر بكثير جداً من هذه المذكرات.

لكنى مع هذا أحب أن أشير إلى أن هذه المذكرات تتميز بكثرة الشخصيات التى أفرد صاحبها صفحات خاصة للحديث عنها، ومن هؤلاء: الخديو عباس حلمى، وحسن عاصم، ومصطفى كامل، وقاسم أمين، وأحمد عرابى، وسعد زغلول، وتولستوى.

وعلى الرغم من أن حديث لطفى السيد عن هذه الشخصيات مختصر إلى أبعد حدود الاختصار، فإنه ليس مبتسراً بل إنه يصل إلى قمة التوفيق بوصوله مباشرة إلى الجوهر الذى يريد أن يتحدث عن الشخصية من

خـلاله، وهو يفعل هذا دون أن يلجأ إلى نظريات جميلة من قبيل نظرية «مفتاح الشخصية» ودون أن ينتصر لرؤيته الشخصية أو السياسية على الوقائع التى أمامه، بل إنه يظل فى تصويره للآخرين أقرب ما يكون إلى المريد الذى يريد أن يتعلم، ومع هذا فإنه يفرض فى سهولة ويسر أستاذيته وقدراته النقدية بكل ثقة وتمكن، وهو لا يجهد نفسه فى هذا السبيل، وإنما يتصرف بأقصى قدر ممكن من هدوء النفس، وهدوء البال، وراحة الضمير.

❑

ولعل أفضل ما أختتم به حديثى هو أن أشير إلى أن أحمد لطفى السيد كان أكبر من مناصبيه وأكبر من خطوات تاريخه ومن معارك هذا التاريخ وهى سمة لا تتأتى إلا للعظماء، ونحن نعرف على سبيل المثال أن أحمد لطفى السيد شارك فى الحركة الوطنية مع مصطفى كامل باشا، وشارك فى تأسيس حزب الأمة، وفى إصدار الجريدة عام ١٩٠٧ وحتى ١٩١٧.

ونعرف كذلك أنه لقى معارضة شديدة لبعض آرائه وإتهم فى دينه وخلقه، لكنه صمد لهذه الاتهامات العابرة ولم ينفعل بها وحافظ على الدوام على ثقته بنفسه.

ونعرف كذلك أنه عمل مديراً لدار الكتب، ورئيساً للجامعة كما انتخب رئيساً لمجمع اللغة العربية منذ ١٩٤٥ وحتى وفاته فى ١٩٦٣، ونعرف أيضاً أنه قد عرضت عليه رئاسة الجمهورية بعد قيام الثورة فاعتذر.

وعلى الرغم من وجود لطفى السيد المبكر فى الحياة العامة فإن أول منصب وزارى تولاه كان فى عام ١٩٢٨ وقد كان آخر منصب وزارى تولاه فى ١٩٤٦. ومع هذا فقد ظلت مكانته المتقدمة فى السياسة المصرية ملحوظة منذ بداية القرن وحتى ما بعد قيام الثورة.

د. عبد الحميد بدوى مجمعيا

د. عبد الحميد بدوى مجمعيا

- **السيد الأستاذ الدكتور رئيس الجمعية الاسلامية**
- **السيد الاستاذ المستشار رئيس مجلس الدولة**
- **السيد الاستاذ المستشار رئيس هيئة قضايا الدولة**
- **أساتذتى الأجلاء**
- **الزملاء الاعزاء**

كان عبد الحميد بدوى مجمعياً عظيماً بكل ما تعنيه هذه الكلمة، ومن حسن حظه أنه كان ثالث عضو منتخب فى تاريخ المجمع مع أنه كان مجّمعيًا منذ العصر الأول لمجمع اللغة العربية، حين كان التعيين هو الأسلوب المتبع لتكوين النخبة المجمعية هو الثالث بين خمسة وعشرين ومئة من المجمعيين المصريين المنتخبين حتى الآن، وهو السادس والعشرون بين المجمعيين المصريين جميعاً، وهو السابع والثلاثون فى موكب المجمعيين من مصريين وعرب ومستعربين.

وقد انتخب الدكتور بدوى بأغلبية الثلثين بعد جدل طويل كان الاتجاه السائد فيه أن تؤجل الانتخابات إلى دورة تالية، لكن فضل الدكتور بدوى وإشعاعه تكفلا له بأن يفوز قبل أن تنتهى الجلسة، ولم يكن ترشيح الدكتور عبد الحميد بدوى لعضوية المجمع بالأمر السهل، فقد رُشح وهو وزير للخارجية، وكان الرأى الغالب أن ينأى المجمع بنفسه عن أن يختار لعضويته مَنْ هو من رجال الحكم الحاضر!! وكان هذا هو نص التعبير المهذب الذى رأى المجمعيون أن يبعدوا أنفسهم به عن السلطة، لكن فضل الدكتور عبد الحميد بدوى كان أكبر من مثل هذا المبدأ السليم فى مظهره وجوهره.

وقد شارك الدكتور عبد الحميد بدوى فى نشاط مجمع اللغة العربية مشاركة فاعلة وفعالة، وانضم لعدد كبير من لجان المجمع مما أهلته له عقليته الحافظة ونفسه الساعية إلى المعرفة على حد سواء، وقد كان عضواً فى لجان: القانون، والاقتصاد، والأدب، والمساحة والعمارة، وألفاظ الحضارة الحديثة، وقد ظل يبذل جهده فى كل هذه اللجان فى تؤدة وإخلاص.

❑

أساتذتى الأجلاء:

كان عبد الحميد بدوى مؤمناً بضرورة وجود مجمع للغة العربية، وكان يبنى رأيه هذا على فهمه لطبيعة اللغة وحياتها، وأن هذه الحياة تشمل فيما تشمل التغير والتحول، سواء فى ذلك التغير فى الشكل والصورْ الظاهرة، والتغير فى المعانى،كما أن هذه الحياة عرضة لما تتعرض له كل حياة من ولادة، وموت، وصحة، وعقم.

وكان عبد الحميد بدوى يرى أن انتقال اللغة من حال إلى حال لا يتم بطريقة فوضوية، وإنما هو يقوم على نظام قد لا ندرك كنهه ولكنه يستند إلى قوانين نفسية واجتماعية وصوتية، فضلاً عن طبائع الحياة نفسها، عند هذا الحد كان عبد الحميد بدوى يرى ضرورة المجمع اللغوى ووظيفته، ويُبلورها فى أن هذا الانتقال اللغوى من حال إلى حال دائمًا ما يكون عرضة للاعوجاج والشطط والخطأ، وبالتالى فإن اللغة تحتاج إلى مَنْ يتولى التقويم والتسديد والتصحيح، وهذه هى وظيفة المجمع اللغوى فى رأى عبد الحميد بدوى، وهو لم يكن ينكر أن الموهوبين من الكتّاب والشعراء وعلماء الفقه يقومون بهذا الدور بصورة تلقائية فى أحيان كثيرة، لكنه بما جبل عليه من ميل إلى إعمال القانون وإلى توظيف العقل فى التشريع، وإلى وضع السنن للحياة الفكرية والحياة العامة على حد سواء، كان يرى أن جهود الموهوبين من كتّاب وشعراء ولغويين لا تغنى عن الجهد الجمعى الذى تصطرع فيه الآراء، وينقدح زناد الفكر، أو على حد تعبيره القانونى الجميل: تُتبادل الآراء، وتُمحص الوقائع، وتُستخلص الحقائق.

هكذا كان عبد الحميد بدوى يرى وظيفة مجمع اللغة موجودة من قبل أن ينشأ المجمع نفسه، وهكذا فإن عبد الحميد بدوى على خلاف كثيرين من جيله ومن جيلنا لم يكن يدور مع البحث عن وظيفة للمجمع اللغوى، ولا كان حفيًّا بتصوير وظائفه المتبناة أو المقترحة، وإنما كانت وظيفة المجمع ومهمته واضحة فى ذهنه، وسابقة على وجود المجمع نفسه، ولهذا السبب كان عبد الحميد بدوى من أبرز المجمعيين الذين ساعدوا على صياغة آليات عمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذى هو المجمع الرائد بين مجامع اللغة العربية، ومن حسن الحظ أننا لا نزال ننتفع بهذه الآليات، بل لا نزال نلتزمها حتى يومنا هذا.

أيها الجمع الكريم :

كان أول عهد الدكتور عبد الحميد بدوى بمجمع اللغة حين عين عضواً فى أبريل ١٩٤٥ بعد انتخابه فى الكرسى الذى خلا بوفاة أول رئيس للمجمع محمد توفيق رفعت باشا، وحين استقبل فى أكتوبر ١٩٤٥ بدأ أعماله مع بدء المجمع دورته الثانية عشرة، بيد أن الإنصاف يقتضينا أن نشير إلى أن مشاركة عبد الحميد بدوى فى تأسيس تقاليد المجمع تدفع بصورته وبإنجازاته عند التأريخ للمؤسسة المجمعية إلى أن يكون ضمن المؤسسين.

❑

وعلى سبيل المثال فإن الدكتور عبد الحميد بدوى هو صاحب الفضل، لا نقول الأوفى ولكن نقول الأول فى ثلاث آليات مجمعية مهمة.

الأولى: هى طريقة انتخاب المجمعيين التى تجعل الانتخاب للكراسى الخالية معًا دون تحديد كرسى ما بتخصص ما، ومن دون اللجوء إلى استقطابات متكررة، من قبيل هذا أو هذا، وقد أقنع الدكتور بدوى زملاءه بوجهة نظره بانياً رأيه على فكرة أن الانتخاب يمثل نوعاً من أنواع المصالحة.

الآلية الثانية: هى لائحة المجمع بما تضمنته من نظم قانونية كثيرة كفلت للمجمع حسن الأداء وسلاسته، وسأضرب على هذا مثلاً واحدا وهو ما نصت عليه اللائحة من اعتبار جلسات المجلس التى لا يكتمل النصاب فيها بمثابة اجتماع لجنة عامة يُعرض محضرها على مجلس تالٍ مكتمل النصاب لتنال موافقته، وتصبح لقراراتها وتوصياتها عندئذ حجية الجلسات.

والآلية الثالثة: هى النص فى قانون المجمع ولائحته على فكرة «المدارسة» قبل الترشيح وقبل الانتخاب، حتى تتهيأ لمجمع اللغة العربية على الدوام الفرصة فى العمل على اكتمال أركانه باكتمال التخصصات العلمية والتوجهات الفكرية بما يفيد فى تكوينه وفى أدائه لوظيفته.

ومن الحق أن أشير إلى أن الدكتور إبراهيم مدكور الرئيس الرابع للمجمع كان دائماً ما يشير إلى أن عبد الحميد بدوى كان هو صاحب الفضل فى وضع فكرة المدارسة هذه فى الصيغة القانونية.

❑

أساتذتى الأجلاء:

لعلى أعود بحضراتكم من الفكر المؤسسى إلى أصول الفكر اللغوى لعبد الحميد بدوى، وقد كان عبد الحميد بدوى معنيّاً منذ بدأ نشاطه المجمعى بما أسماه «قضية الازدواج اللغوى»، وهو يصف هذا الازدواج ويشخصه فى قوله:

«إن العربى الذى يأخذ من المدنية الغربية بسبب، لا يسعه أن يتجنب نوعًا من الازدواج النفسى والعقلى. فهو يحس بنفسه العربية ضروباً من الأحاسيس، وهو فى الوقت نفسه - وبقدر ما يكون قد أصاب من آداب لغة غربية أو أكثر ومن فنون تلك اللغة أو اللغات - يتذوق ويحس أذواقًا وأحاسيس أخرى لا يجد سبيلاً إلى استثمارها أو الإعراب عنها إلا بما نفذ إلى نفسه من وسائل تلك اللغة أو اللغات وآداب أهلها وفنونهم، فإذا أراد أن يحيل تلك الأذواق والأحاسيس عربية، ألفى دون ذلك صعوبات غير قليلة».

وهو ينتبه إلى ما يشوب محاوراتنا الراقية أو المهنية من بعض لجوء إلى لغات أخرى، ومن ثم فإنه كان يجد نفسه حفيا بإضفاء القدرة التعبيرية على اللغة من خلال استكشاف قوالب جديدة لم يكن يشكّ في وجودها، وهو يقول في هذا المعنى:

«إن العربي لا يسعه أن يتجنب في سياق الحكاية أو الترسل أو التدليل بعض المعاني والصور التي يكون قد ألفها من ممارسة آداب أجنبية. وقد تكون نابية في العربية: لا لأن العربية لا يتسع صدرها لمثلها، ولكن لأن النقل المادي أو الحرفي يجعلها كذلك. ولاشك في أن العربية تستسيغ مثل تلك المعاني والصور، لو صُبت في قوالب عربية. ولعل القوالب موجودة لكنها تحتاج إلى تحقيق واستكشاف».

❑

«وقد استحدثت المدنية الغربية رقيًا كبيرًا في العلوم والفنون وفي شئون الحياة، وكان من آثار ذلك الرقي أن نزل علينا وابل من الألفاظ والاصطلاحات التي تحكي الفرق بين ما بلغته المدنية العربية، حين وقفت وأصابها الركود، وبين ما وصلت إليه المدنية الغربية منذ مضت تركض ركضًا في استفتاح مغاليق العلوم، واستكشاف المجهول من أسرار العالم وقوانينه ونظمه».

«ونفذ هذا السيل الجارف من الألفاظ والاصطلاحات إلى الألسنة بصور تختلف باختلاف مصادرها، وتتفق في العجمة والغرابة الوحشية، وتعرّض اللسان العربي الصحيح إلى الاختلاط والتشويش. ولم يكن بد إذا من أن تتولى هيئة منظمة قديرة حفظ ذلك اللسان والقيام على سلامته، وللكتّاب والنقاد في

هذا الشأن فضل أي فضل، فهم هداة الأمة ومقومو لسانها بما يكتبون وينقدون، غير أن الخطر أكبر من أن يجتزأ فيه بهذه الوسيلة، وأجلّ من أن تُهمل معه وسائل توحيد العمل وتركيزه، وتجميع القوى والكفايات فى مجمع يرصد ويحقق وينتهى إلى توصيات، فإن تلك الوسائل جديرة أن تهيئ لتلك التوصيات ما يجب لها من الهيبة والاحترام، ومن الذيوع والانتشار».

ويصل عبد الحميد بدوى إلى تحديد فهمه لإحدى الوظائف المتجددة للمجمع اللغوى فيما يتعلق بتجديد اللغة وسلامتها فى الوقت ذاته فيقول:

«... وأكبر ظنى أن العناية بهذا الغرض من أغراض المجمع لا تنافى معالجة الازدواج الذى أشرت إليه. فإن الأمر فيها لا يعدو تحديد ما ينبغى استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب تحديداً يجعل اللغة ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر، وقد جعل هذا التحديد فى مرسوم إنشاء المجمع من أولى غاياته».

❑

«ذلك أن اللغات الغربية تتضمن صوراً من الكلام ومعانى وأساليب وأخيلة ليست من ذوق اللغة العربية وإن تكن طرائق التفكير الحديثة تسيغها، بل تقتضيها فى بعض الأحايين، فما لم تهضم اللغة العربية، بحسب أصولها وأوضاعها، تلك الصور والمعانى والأساليب والأخيلة وتمثلها وتحيلها عربية الوجه، ظل الازدواج قائماً وكيان العربية مهدداً».

«وعندى أنه قد لا ينقص اللغة العربية ما ينبغى من أسباب الأداء لتلك الصور والمعانى والأساليب والأخيلة، لكن المتداول بيننا من مادة اللغة لا يلوح أنه يفى بمثل هذه الحاجة».

«وقد يكون من الحق أن اللغة العربية لم تنته إلينا بكليتها، وأن الذى جاءنا عن العرب قليل من كثير، وأن كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله. ولكن ما علينا من ذلك، وإنه ليكفى أن ننتفع بما انتهى إلينا انتفاعا صحيحا لجعل لغتنا صالحة لما نريد لها، متسعة لكل قديم وجديد. وها نحن أولاء فى العصور القريبة منا نرى الأمة تتخذ لغة من اللغات، ولا تزال تضيف إليها وتنقص منها، وتغير وتحول وتستحدث فى ألفاظها وتراكيبها، فإذا بالفرع يختلف عن الأصل دون أن يعزب على أهل الأصل فَهْم اللغةِ الجديدة أو العكس، وإذا بهذا الاختلاف لا يخل بما لكل منها من حسن السبك، ومتانة النسيج، تلك هى قصة اللغة الإنجليزية فى أمريكا».

❑

أساتذتى الأجلاء:

على هذا النحو كان الدكتور عبد الحميد بدوى يرى قدرة المجامع اللغوية - ولا نقول المجمع اللغوى - على تطوير اللغة بالقانون وبالتشريع، صادراً عن فهم دقيق لمدى قدرة القانون والتشريع على العمل من أجل هذه الغايةِ، وعلى ما ينبغى للقانون والتشريع أن ينطلق منه وهو يؤدى دوره، وعلى المحاذير التى ينبغى عليهما أن يأخذها فى الحسبان..على أنه من ناحية أخرى كان يرى الأمر مرتبطا بالسياسة والوطنية ارتباطاً لا يمكن وصفه بلفظ أقل من لفظ الاستقلال، وهو يقول فى هذا المعنى:

«وكما أن الاستقلال السياسى يجب أن يكون قبلة كل بلد يعرف قدر نفسه ويحترمها، دون أن يحول ذلك دون قدر من التعاون والتعاضد الدولى، كذلك يجب لكل لغة أن تستقل بأوضاع لغتها وبصورها وأساليبها الخاصة، دون أن يحول ذلك دون الاستعارة من غيرها من اللغات والتأثر بالآداب الأخرى».

وهنا ينبه عبد الحميد بدوى إلى إحدى صور الاعتداء على الاستقلال اللغوى فيقول:

«وليس من الاستقلال فى شىء أن تُقرأ عبارات وصيغٌ لا تفهمها على وجهها إلا إذا قرأت من خلال الكِساء العربى الذى يطالعك ما أريد نقله من عبارات أو صيغ أجنبية. ومما يؤسف له أن تكون دواعى السرعة فى الكتابة من أسباب هذا البعد عن رسوم العربية فى الخطاب».

❑

أساتذتى الأجلاء:

كان الدكتور عبد الحميد بدوى من أشد الناس إنصافًا لجهد المجمع اللغوى، وكان من أوائل الذين قدروا جهد هذا المجمع فى سنواته العشر الأولى على الرغم من أنه لم يكن قد أصبح عضواً فيه، لكنها روح الإنصاف التى دفعته إلى قوله:

«إن مجمعكم الموقر ليبدو فى أوائل عقده الثانى ركناً من أركان نهضة هذه البلاد، كأنه وهى أبعد منه عهداً وأطول عمراً كان قريناً لها منذ قامت، وليس هذا من خدعة النظر أو من تصوير الخيال، وإنما الحاجة الشديدة إليه هى التى جعلته غداة إنشائه كأنه قد ركب فى بنية تلك النهضة وائتلف مع نسيجها، فهو جزء منها لابد منه ولا غنى عنه. غير أنه لم يكن ليبلغ تلك الغاية لو لم يكن قد ألف من جهابذة أسبغوا عليه من فضلهم، وأفاضوا من علمهم، ما اتسق به واقع الحال مع ما عقد عليه من آمال».

وفى موضع سابق يقول عبد الحميد بدوى :

«وقد عُنى المجمع بطائفة كبيرة من الألفاظ والاصطلاحات، ووضع لها ما يقابلها من الألفاظ والاصطلاحات العربية السليمة، وهو ماض فى معالجة غيرها، وفى وضع ما يجب لمعرفة اللغة وضبطها من معاجم، وجهده فى كل ذلك مشكور وإن ظل أكثره مجهولا، ولو قيس بالوقت الذى سلخه فى القيام به لكان أجدر بالشكر والثناء».

❑

أساتذتى الأجلاء:

كان عبد الحميد بدوى فى اعتزازه باللغة العربية يدرك شاعريتها وجاذبيتها ويعترف بولهه البالغ بلغته دون أن يدعى أنه من الممكن له أن يقيم حبه للغة على أساس علمى أو تاريخى أو لغوى، وهو يقول فى هذا المعنى:

«... ولست بالقائل بأن لغتنا أفضل اللغات وأوسعها، وإنما يستطيع ذلك مَنْ وعاها ووعى غيرها، وأحاط بها جميعاً إحاطة كاملة، فكان قادراً على أن يرسل فيها حكمًا يبين الفاضل والمفضول، لكنى أشعر فى غير زهو أو مكابرة بأنها عزيزة علينا، وأنها لن تعدلها فى نفوسنا لغة أخرى مهما غنيت بالآثار، ولها بوصف أنها لغة «الكتاب» عزة فوق عزة، وسلطان على النفوس لا يُجارى».

أساتذتى الأجلاء،

أيها الجمع الكريم:

لعلى فى نهاية حديثى أستعير من عبد الحميد بدوى تعبيره القصير القائل: «إنى أشعر فى غير زهو أو مكابرة» فأقول إنى أشعر فى غير زهو أو مكابرة أنى حزت بفضلكم شرفًا كبيراً حين تفضل علىّ الأستاذ الدكتور برهام عطا الله بأن

أكون ثالث الذين يتحدثون عن عبد الحميد بدوى كمجمعى بعد الدكتور طه حسين الذى استقبله حين انتخب عضواً فى المجمع، والدكتور عبد الرزاق السنهورى الذى أبنّه فى المجمع. ومع هذا فإني أشعر في غير تواضع أني قد قصرت الوفاء بحق الرجل وإن كنت قد بلورت بعض فضله، وهو فضل متصل ومتواصل مع إنجازاته الخالدة في مجتمعنا الفكرى والثقافى وفى حياتنا الاقتصادية والقانونية.

المستشار محمد بدر المنياوى

أساتذتى الأجلاء

أبدأ من حيث انتهى أستاذنا الدكتور إبراهيم بدران حيث قال إن هذا الرجل العظيم كان نسخة فريدة، لكننى أقول: إن بدر المنياوى لم يكن نسخة فريدة فحسب، وإنما كان عملة نادرة يعرف العامة ندرتها، لكن الخاصة يعرفون قيمتها بأكثر مما يعرف العامة.

وإذا أردت أن أصف هذا الرجل فى كلمات قليلة فإنى أقول إنه كان سحابة تقل الخير، وتظل البشر، يراها الناس سماء، وهم يعجبون أن يكون مصدرها من المياه التى تحيط بالأرض.. هكذا كان سلوكه سلوك رجل معطاء ينهمر عطاؤه ويتدفق.

وأصدق ما يقال فى وصف سلوكه القضائى أنه كان قليل الكلام كثير العمل، وأنه كان قليل الإفتاء، لكنه كان عميق الدراسة، وعلى المستوى الإنسانى فقد كانت أخوته صادقة، وكانت تقواه هادئة، وكانت نفسيته راضية، وكانت

كان شيخاً فى علمه ودقة فقهه، وكان نموذجاً للمشايخ الأزهريين الكبار الذين لم يعملوا فى الأزهر، ولم يرتدوا زى الشيوخ، وإنما عملوا بتفوق وامتياز فى الحياة المدنية، ونالوا من مناصبها ما أهلتهم لها كفاءتهم وحدها.

كان حكيماً دقيقاً فى تفكيره، وكان إسلامى التوجه فى عصر عزّ فيه أن يكون الإنسان إسلامى التوجه بصفة عامة.

نشأ رحمه الله فى بيت من بيوت العلم بالدين والشرع الحنيف. كان والده الشيخ يوسف المنياوى أستاذاً للفقه المالكى فى كلية الشريعة، وكان جده لوالدته هو الشيخ محمد عبد اللطيف الفحام وكيل الأزهر الشريف فى عهد الشيخ المراغى.

وتلقى أستاذنا تعليمه على نحو ما يتلقى المدنيون تعليمهم، وتشربت نفسه بعلوم الفقه والقرآن على نحو ما تتشرب هذه العلوم أفئدة الصالحين من ذرية العلماء، وتفاعلت فى توجيه مطامحه ما أحسه من قدراته العقلية، وما استشعره فى الوقت ذاته من رغبات المجتمع من حوله، فآثر وهو يتخطى لتوه سن الحداثة أن يجمع هذا إلى ذاك حتى لو كلفه ذلك من نفسه جهداً رهيباً ينوء به أمثاله، لكنه آثر المجد المضاعف، وهكذا سحب من رصيد وقت لعبه وراحته ليضيف إلى رصيد وقت علمه وعمله، فدرس فى كليتى الشريعة والحقوق بطريقة متوازية، وحصل على الشهادتين معاً، وكأنه رجلان لا رجل واحد، بيد أن محصلة الشهادتين لم تكن مجرد المحصلة الرياضية للاجتماع أو الإضافة، لكنها كانت أكثر من هذا بكثير بحكم ما أتيح لصاحبها من تأمل فى تفاعل الآراء وتوليدها لكثير من الأفكار البناءة التى لا تتولد إلا مع التفاعل الذكى، ولا تتولد إلا فى العقليات الذكية فى مثل عقليته الباهرة.

وكعادة رجال القضاء المصرى المتميزين فإن المستشار محمد بدر المنياوى آثر لنشاطه مجال الحياة القضائية المترفعة عن الدنيا وعن أمجاد الشهرة والضجيج، وهكذا عاش حياته حتى وصل إلى قمة المناصب فى النيابة العامة دون أن يبنى حول شخصه هالات المجد التى كان يستحقها، أو يستدعى هالات التقدير التى كان لابد أن تتوجه إليه، وقد عمل نائباً عاماً فأعطى لهذا المنصب طابعه المثالى من التجرد والارتقاء، وأضاف فيه كثيراً من أمجاد أسلافه من رجال القانون العظماء، وكان بسلوكه نموذجاً لعباد الله الذين يمشون على الأرض هونا، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما، وقد نجح فى أدائه لوظيفة النائب العام نجاحاً بارزاً دون جلبة أو ضجيج، وللذين يريدون أن يقارنوا نجاحه فيه أن يقارنوه بأسلافه أو خلفائه وسيجدونه متميزاً لا يقل عنهم، إن لم يفضل كثيراً منهم.

أساتذتى الأحباء

كان المستشار محمد بدر المنياوى بحكم ثقافته وخبراته قادراً على أن يشترك بفعالية فى إحياء عصر الاجتهاد على نحو علمى مدروس يستوفى للأمة الإسلامية ما هى بحاجة إليه من موقف إيجابى من التراث الفقهى العريق، وإحياء روحه لتلبى حاجات العصر إلى رأى الدين، وهى حاجات متزايدة، والحق أنه أدى دوره هذا على أفضل ما يكون من خلال عضويته فى مؤسسات التشريع المدنى والتشريع الإسلامى على حد سواء، وكانت مساهمته فى هذا الميدان واعدة ومبشرة بالخير.

وقد وضع المستشار محمد بدر المنياوى طيلة حياته القضائية كثيراً من البحوث القضائية والإسلامية فى عدد من معاهد الفكر والبحوث والدراسات، وكانت مذكراته القانونية طيلة عمله نموذجاً لتفكير فذ متزن، وفى هذا الصدد يكفينى أن أشير إلى موقفه الحاسم وهو نائب عام من إلغاء حكم الطعن فى

شخصيته آسرة، وكانت إنسانيته رائعة.. ظاهرة وباطنة، وقد ظل طيلة حياته نموذجاً لرقى السلوك والفكر والأداء، مع روح حانية مقدرة، وفؤاد عامر بتقوى الله، وحب الوطن، وتعشق تقاليد القضاء، والفقه.

وعلى نحو ما اجتمع فى علمه تراث المدرستين الوطنيتين فى القضاء بالقانون المدنى، والشريعة الحنيفة، فقد اجتمعت على تقديره أفئدة رجال القانون ورجال الأزهر، بل أفئدة كل مَنْ عرفوه، وكان - فى رأيى - صورة للاتزان النفسى النادر. فقد كان حاضر البديهة فى غير ادعاء، وكان حاضر النكتة فى غير تبذل، وكان حاضر الفهم فى غير تشنج، وكان حاضر العطاء فى غير مَنّ، وسيظل اسمه حاضراً على الدوام فى غير تكلف.

أساتذتى الأجلاء

كان المستشار محمد بدر المنياوى علماً من أعلام الفقه والقانون، عاش حياته العملية والعلمية على نحو متفرد لم يتهيأ إلا للندرة من رجال القضاء فى مصر فى العصر الحديث، باجتماع وتفاعل مدرستى التشريع والقضاء، فى القضاء الوطنى والقضاء الشرعى، فى تكوينه وعلمه وعمله.

كان رحمه الله نموذجاً للقاضى العادل، العامل بما تعلم، المترفع عن الحياة الدنيا، الساعى إلى إعلاء قيم الخير بجانب قيم العدل، ثم تحول بعد تقاعده إلى صورة متميزة من رجال المؤسسات المدنية القادرين على المشاركة الفاعلة فى عمل الفريق، وعلى الدفع بعمل الجماعات الصغيرة إلى آفاق متميزة من الإنجاز المجتمعى المحكوم بضوابط كفيلة بالاستمرارية والمثالية والصواب، وبالإضافة إلى هذا وذاك فقد ظل بمثابة معين لا ينضب للرأى الفقهى المتميز.

الطلاق أمام محكمة النقض، وقصر الحكم فى قضايا الطلاق على درجتين فقط، وهو قرار حكيم استهدف سلامة العلاقات الشخصية فى مجتمع مسلم ابتلى فى بعض الفترات بشيوع الرغبة فى اللدد فى الخصومة.

وقد شاء له القدر أن يواصل هذا النهج على مستوى أرفع حين انتخب عضواً فى مجمع البحوث الإسلامية، ويذكر له هذا المجمع كثيراً مما سبقنى إليه أستاذنا الدكتور مصطفى الشكعة فى حديثه هذه الليلة، ومن هذه البحوث بحثه عن شرعية عوائد شهادات استثمار البنك الأهلى المصرى المجموعة (ب)، وبحوثه فيما يتعلق بقضايا السكان المستحدثة التى أريد لمصر أن تعطيها شرعية، وتعليقه الضافى على الوثيقة الدولية لحقوق الإنسان (١٩٩١)، وتقريره عن رواية مصطفى محمود «زيارة للجنة والنار».

وقد أعد بيان المجمع عن مذابح البوسنة والهرسك، وهو التقرير الذى شاركه فيه الدكتوران مصطفى الشكعة، وعبد الرحمن العدوى، وأحدث ضجيجا فى العالمين العربى والإسلامى.

وهو الذى تولى إبداء رأى المجمع فى مشروع القانون الذى أعدته وزارة الصحة بشأن تنظيم نقل الأعضاء البشرية، وكانت له أيضا ملاحظاته القيمة فى حكم الفقه فى جراحات التجميل.

كما أنه أعد للمجمع ورقة عمل عن مفهوم الإرهاب فى الشريعة الإسلامية، معرفاً بالإرهاب، نافياً بالقانون والأسانيد الدعاوى التى تلحقه بالإسلام. وهو صاحب الصياغة الجميلة للرأى القانونى القائل بأن المجمع لا يصادر وإنما يبدى الرأى، وبذا برأ المجمع من تهمة شائعة.

وفى المجال الاجتماعى يذكر للمستشار المنياوى أنه مارس علمه وفنه من أجل تنمية المجتمع على المدى طويل الأجل، وقد بذل جهوداً رائعةً لا تصدر إلا

عن أمثاله فى تطوير وظيفة الوقف وإحياء سنّة الوقف وتقاليده، وهو جهد لم يكن ليصدر إلا عن رجال من طرازه، ومن طراز صديقه الفاضل المستشار الدكتور محمد شوقى الفنجرى رئيس مجلس إدارة الجمعية الخيرية الإسلامية، وقد شهدت الجمعية بفضلهما وفضل زملائهما الأفاضل مرحلة بارزة من مراحل الإحياء والبعث بعد الضربات المتلاحقة التى وجهت إلى مبدأ الوقف الإسلامى وفكرته النبيلة على مدى عدة عقود من الزمان.

لم يبخل المستشار المنياوى بآرائه وجهوده ومشاركاته على المستوى القومى فى قضايا التنمية والتربية، وكان على الدوام من رواد اجتماعات المجالس القومية المتخصصة، واللجان المعنية بكل القضايا العامة فى مصر.

وامتد نشاطه إلى الجامعات والمعاهد العلمية، فشارك بالتدريس والمحاضرة، كما شارك فى مجالس الكليات والجامعات، وكان فضله حاضراً بصوته الهادئ، ورأيه الرزين، كما شارك فى الإشراف على بعض رسائل الدكتوراه، وفى مناقشة البعض الآخر.

وقد امتدت إسهاماته العلمية إلى المعهد القومى للدراسات القضائية، وإلى أكاديمية الشرطة، ومعهد الضباط المتخصصين.

وقد كان - رحمه الله - عضواً فى المجلس الأعلى للأزهر وأميناً له، وكان عضواً فى مجمع الفقه الإسلامى (التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامى)، وعضواً فى رابطة الجامعات الإسلامية، وعضواً فى المجلس الإسلامى للدعوة والإغاثة.

وفى مصر كان عضواً فى لجان المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ولجان أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا، ومجلس إدارة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، ومجلس إدارة مركز الشيخ صالح كامل للاقتصاد

الإسلامى بجامعة الأزهر، كما كان عضواً فى جمعية حقوق الإنسان، وعضواً فى جمعية مستشارى محاكم الاستئناف.

بالإضافة إلى كل هذا أسهم المستشار المنياوى بالكتابة الموسوعية المتميزة فى عدد من الأعمال العلمية والأكاديمية ذات المستوى المتميز.

أساتذتى الأجلاء

لست أستطيع أن أترك موقعى من دون أن ألخص فى سطور قليلة قصة حياة هذا الرجل مع التعليم والوظائف والمناصب، ذلك أن أحاديث الليلة طوفت بأعماق شخصيته التى يعرفها محبوه، وبقى أن نعرف به مَنْ لا يعرف، وفى هذا الصدد أستطيع أن ألخص حياته فى عجالة فأقول: إنه ولد فى السابع عشر من يناير سنة واحد وثلاثين (١٩٣١)، وتخرج فى كلية الشريعة جامعة الأزهر وكلية الحقوق جامعة القاهرة فى نفس العام (١٩٥٣)، وحصل على درجة الماجستير فى القانون، كما حصل على دبلوم فى الشريعة الإسلامية، وقد انتظم فى العمل بالنيابة العامة منذ مارس ١٩٥٤ وحتى أصبح نائباً عاماً فى يوليو ١٩٩٠، وحتى تقاعد فى أكتوبر ١٩٩١، وفى أثناء هذا تدرج فى وظائف النيابة العامة المختلفة حتى نال درجة النائب العام المساعد فى ١٩٨٤، وعمل من خلال هذه الدرجة كمسئول عن التفتيش القضائى (أكتوبر ١٩٨٤)، وكنائب عام مساعد لدائرة محكمة استئناف الإسماعيلية (نوفمبر ١٩٨٨)، كما نال درجة نائب رئيس محكمة النقض فى يونيو ١٩٨٤.

نال بعض التقدير الذى يستحقه، وقد أطلق اسمه على قاعة فى المركز القومى للدراسات القضائية.

وقد توفى عليه رحمة الله فى الثلاثين من أبريل سنة ألفين وثلاث (٢٠٠٣).

الإمام محمد عبده

الإمام محمد عبده استاذا مربياً

فضيلة الاستاذ الدكتور وزير الأوقاف

فضيلة الاستاذ الدكتور مفتى الجمهورية

السيد الأستاذ الدكتور رئيس الجمعية الخيرية الإسلامية

الأساتذة الأفاضل

الزملاء الأعزاء

أيها الجمع الكريم

أبدأ بنبذة بسيطة عن حياة الاستاذ الامام أرجو من خلالها أن أضبط بعض تواريخ الأحداث التى نعرض لها فى حديثنا اليوم.

ولد الأستاذ الإمام محمد عبده حسن خير الله، بقرية «محلة نصر» مركز شبراخيت محافظة البحيرة قبل أن ينتصف القرن التاسع عشر بعام واحد، وهذا هو الأرجح، وإن كانت هناك روايات تقول بأنه ولد قبل ذلك أو قبيل ذلك.

وبعد أن تعلم فى «كُتّاب» القرية أخذ طريقه إلى التعليم الدينى بالمعهد الأحمدى بطنطا (١٨٦٢)، لكنه سرعان ما أحس بعقم أساليب التدريس فعاد إلى القرية وتزوج، ورغب فى الاشتغال كإخوته فى فلاحة الأرض، لكن والده أصر على عودته إلى طلب العلم، فهرب إلى أخوال أبيه فى قرية «كنيسة أورين»، وهناك تعلق بأحدهم وهو الشيخ درويش خضر، وكان صوفيا من الطريقة السنوسية، وعلى يديه فتح الله صدره لطلب العلم، فعاد إلى طنطا، ثم التحق بالأزهر وفيه تحول مجرى حياته الفكرى عندما تعرف (١٨٧١) على جمال الدين الأفغانى، وتتلمذ على يديه، ولازم حلقات درسه. وتخرج (١٨٧٧)، وعُين مدرسا للتاريخ بمدرسة دار العلوم العليا، كما درّس بمدرسة الألسن، واختار أن يشرح لطلابه مقدمة ابن خلدون كمقرر فى التاريخ(!!) وكان فى الوقت نفسه يكتب فى الصحافة، ويعمل بالسياسة مع أستاذه الأفغانى من خلال الحزب الوطنى الحر.

❑

وعندما نفى الأفغانى من مصر عُزل محمد عبده من التدريس، وحددت إقامته بقريته، إلى أن استصدر له رئيس الوزراء رياض باشا عفوا خديويا وقربه إليه، وكان بمثابة مستشاره،وقد عينه رياض باشا محررا أولا لصحيفة «الوقائع المصرية»، فطورها وأنشأ بها قسما غير رسمى نشر فيه بقلمه ما نفهم الآن أنه كان مدارسة فقهية لأحكام القضاء وذلك من خلال ما سماه «التعليق على أحكام المحاكم».

وعندما بدأت نذر الثورة العربية فى الإعلان عن نفسها لم يكن الشيخ محمد عبده من أنصار الثورة، وإنما كان (علي نحو ما عرف في ذلك الوقت وعلي نحو ما نعرف الآن) من أنصار الإصلاح التدريجى عن طريق التربية والتهذيب

والتعليم، وجعله هذا يختلف مع الحزب الجهادى العسكرى الذى كان يقوده أحمد عرابى باشا، لكنه فيما بعد مظاهرة عابدين (٩ سبتمبر ١٨٨١) انخرط تماماً فى الثورة العرابية ومثل جناح الاعتدال فى قيادتها، فلما احتل الإنجليز مصر (سبتمبر سنة ١٨٨٢) سجن وحوكم مع زعماء الثورة، ونفى إلى خارج البلاد ثلاث سنوات لكنها امتدت إلى ست سنوات، وقد بدأ منفاه ببيروت، ومنها لحق بالأفغانى فى باريس، حيث عمل رئيسا لتحرير مجلة «العروة الوثقى» ونائبا للأفغانى فى رئاسة تنظيم جمعية العروة الوثقى السرية.

وبعد توقف المجلة وانقضاء السنوات المحكوم عليه بالنفى فيها، عاودته الرغبة فى العمل فى مجال الإصلاح الاجتماعى من خلال تعديل وتطوير مناهج التعليم، واتخاذ هذا السبيل مدخلاً إلى التجديد الفكرى ، فعاد إلى بيروت وعمل معلما بالمدرسة السلطانية، ومفسرا للقرآن بالمسجد العمرى، ومؤلفا، ومحققا لكتب التراث الإسلامى، وتفرغ للاجتهاد والتجديد.

❑

وفى ١٨٨٩ نجحت مساعى أصدقائه فعاد إلى مصر، لكن نظام الخديو توفيق أصر على أن يبعده عن مهنته المحببة وهى التدريس، فاشتغل بالقضاء وترقي حتى أصبح مستشارا بمحكمة الاستئناف سنة ١٨٩١ ، وقد شهد العقد الأخير من القرن التاسع عشر نجاحه الساحق في فرض رؤاه وشخصيته في الحياة العامة، فقد شارك فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية (١٨٩٢) ورأسها فى (١٩٠٠)، ووجه نشاطها نحو التعليم والتنوير، وعين عضواً فى مجلس شورى القوانين (١٨٩٩)، وتولى منصب مفتى الديار المصرية (١٨٩٩)، وأسس جمعية لإحياء التراث وهى جمعية إحياء الكتب العربية (١٩٠٠).

وحين لمع نجمه وأصبح ملاذاً للإصلاح والتجديد والرأى ركز فى نشاطه على إصلاح المؤسسات الأربع التى تقوم على صياغة العقل والوجدان الإسلامى: الأزهر، والمساجد، والمدارس، والمحاكم الشرعية، وحقق فى هذا الميدان نجاحات لا تنكر، كانت الأساس لما أنجز بعد هذا.

وفي أثناء ذلك كله اتصل الإمام محمد عبده بالإدارة الإنجليزية التى كانت تتولى إدارة شئون مصر بعد وقوع الاحتلال الانجليزى، وربطته علاقات حسنة باللورد كرومر الذى كان يراه، حسب رواية الأستاذ محمد كرد على، صالحاً لرئاسة الوزارة فى مصر لو أنه خلع زيه الأزهرى.

❑

كان محمد عبده واعياً لقيمته الفكرية فى عصره، ولأهمية الحوار الحضارى والفكرى وقد خاض المعارك الفكرية الكبرى مع جابرييل هانوتو (١٨٥٣ - ١٩٤٤)، وفرح أنطون (١٨٦١ ـ ١٩٢٢) دفاعا عن الإسلام وحضارته.

ومن خلال مجلة «المنار» التى أصدرها تلميذه محمد رشيد رضا بلغت دعوته فى التجديد والإصلاح كل أرجاء العالم الإسلامى، ونشر تفسيره لما فسر من أجزاء القرآن الكريم، وله رسالة مشهورة يكاد العلماء يجمعون على أنه جدد بها علم الكلام الإسلامى وهي «رسالة التوحيد».

❑

وقد ظل تلاميذه المباشرون يتولون قيادة المؤسسات الدينية فى مصر حتى ما بعد نهاية النصف الأول من القرن العشرين، ومن هؤلاء الظواهرى، والمراغى، وعبد المجيد سليم، ومصطفى عبد الرازق، والشناوى، وحمروش.

بقى أن أصحح ما قيل الآن فى هذه القاعة وكرر من أنه توفى وهو يتولى منصب الإفتاء والواقع أنه كان قد ترك هذه المنصب نهائيًا قبل أن يتوفى، لكن الأمر يختلط على الناقلين لتاريخه لأن الحدثين وقعا فى العام نفسه.

❑

أساتذتى الأجلاء

لست أدرى هل أنا محظوظ بأن أتحدث عن الجانب التربوى في حياة الأستاذ الإمام محمد عبده، أم أنى قد وُضعت أمام أصعب المواقف، ذلك أن محمد عبده نفسه كان لا يجد نفسه إلا فى وظيفة الأستاذ المعلم إلى حد أنه كان يفضل هذه الوظيفة على ما وصل إليه من منصب قضائى عال وهو منصب المستشار فى محكمة الاستئناف، ولم يكن هناك فى ذلك الوقت أعلى من هذا المنصب إلا رئاسة محكمة الاستئناف، وكما ذكرنا فقد روى الأستاذ محمد كرد على فى كتابه «المعاصرون» أن اللورد كرومر كان يرى أن الأستاذ الإمام محمد عبده أولى الناس برياسة الوزارة فى مصر لو أنه خلع زيه الأزهرى، لكن محمد عبده كان يؤثر على هذا كله وظيفة الأستاذية حتى بدون أن يكون لها راتب أو أجر ثابت.

❑

وليس هناك جدال فى أن تضحية محمد عبده بمنصب الإفتاء وزهده فى مشيخة الأزهر لم يكن عن كراهية لمثل هذه المناصب المؤثرة بقدر ما كان حباً فى الأستاذية وممارستها، وربما أن التاريخ نفسه حفظ لهذا الرجل مكانته التى تطلع إليها فلقبه فى حياته وبعد مماته باللقبين المحببين إليه وجمعهما معاً فى لقب واحد: وهو الأستاذ الإمام، وقدموا الأستاذية على الإمامة، إيحاء بأنه لم يكن

أستاذا إلا بعد أن أصبح إماما، وشتان بين أستاذية بحتة، وأستاذية تتحقق بعد الإمامة، ذلك أن الأستاذية التى تتحقق بعد الإمامة تجعل صاحبها بمثابة الإمام بين الأساتذة، كما يصبح بمثابة الأستاذ الذى لا يعلوه آخر، لأنه يتفوق على الآخرين.

❑

ومن عجائب القدر وللقدر حكمة.. بل حكم لا نعرفها، أن بعض تلاميذ محمد عبده وتابعيهم حين أرادوا للمنصب الكبير الذى شغلوه وهو منصب مشيخة الأزهر لقبا خاصا يدل عليه، آثروا أن يكون هذا اللقب هو الأستاذ الأكبر، وكأنهم كانوا بعقولهم الواعية وغير الواعية يحتفظون للشيخ محمد عبده بلقب الأستاذ الإمام الذى هو أكبر من كل أستاذ أكبر.

لكل هذه المعانى وغيرها فإنى أحس نفسى عاجزاً عن أن أكون على قدر الندية للمهمة التى اختيرت لى بالحديث عن الأستاذ الإمام تربويًا، فالعادة فى مثل حالتنا هذه أن يتحدث كل منا عن الجزئية التى يتناولها، فما بالنا والجزئية التى اختيرت لى هى الكلية الكبرى فى حياة رجلنا العظيم، وقد مارسها فى القاهرة وفى بيروت.. فى باريس وفى الجزائر.. فى دار العلوم، وفى الألسن.. فى الأزهر وفى خارج الأزهر.. فى الإفتاء، وفى مجلس شورى القوانين.. فى الجريدة الرسمية وفى الصحافة.. فى مجلس الأوقاف، ومجلس الأزهر.. فى جمعية العروة الوثقى، وفى الجمعية الخيرية الإسلامية.

❑

فى كل هذه المحافل مارس محمد عبده أستاذية نادرة ذات ملامح مكتملة، وسجايا مؤتلفة، وآثار متسقة. وقد كان صاحب مذهب تربوى متكامل، ويكفى

للتدليل على هذا أن نشير على سبيل المثال إلى أنه كان أول من انتبه إلى ضرروروة إنشاء مؤسسة للتعليم تخلو من شبهة ازدواجية التعليم الدينى والمدنى وترنو إلى الإفادة من مزايا التعليمين معاً، ومن حسن الحظ أنه أنشأ نموذجاً لهذه المؤسسة من خلال جمعيتنا هذه التى رأس مجلس إدارتها ووجه جهودها فى اتجاه الإصلاح الاجتماعى المدنى الصادر عن روح إيمانية لا حدود لإخلاصها الحقيقى، ولا لفهمها العميق.

❑

أساتذتى الأجلاء

لم يكن الأستاذ الإمام محمد عبده تربويا تقليديا، وإنما كان رائدا تربويا بكل ما تعنيه الكلمة من مدلولات ودلالات.

وقد تمكن من وضع أكثر من خطة من خطط تطوير التعليم والتربية، سواء على مستوى الإمبراطورية العثمانية كلها، أو على مستوى أقطارها فى مصر وفى سوريا الكبرى.

كما أنه تمكن من النهوض بمؤسسات تربوية إلى مستويات لم تكن معطياتها وحدها، من دون عونه وتوجيهه، تؤهلها للوصول إليها.

وعلى صعيد ثالث فإن محمد عبده كان من أصحاب الطرق الخاصة فى التربية والتعليم.

وعلى صعيد رابع فإن محمد عبده كان أفضل مصمم للمناهج عرفته مصر فى عصره والعصور التالية.

وعلى صعيد خامس فقد نجح هذا الرجل العظيم فى تطوير البيئة التربوية فى أعرق مؤسسة تعليمية فى العالم الإسلامى تطويرا لم يكن من الممكن أن يتم

على يد غيره، بل إن كل التطويرات التى شهدتها هذه البيئة فيما بعد عهده كانت نتاجاً مباشراً لأفكاره وخططه وتوجهاته.

وليس من شك فى أن هذه الجوانب الخمسة بل بعضها كان كفيلا بأن يجعل صاحبها نموذجاً لعبقرية تربوية لاشك فيها.

وبالإضافة إلى هذه الأصعدة الخمسة التى نجح محمد عبده من خلالها فى أن يقدم شخصية التربوى الفذ، كان الرجل فى مجموع نشاطه ومجمل أفكاره نموذجا لرائد التربية الذى يتخطى الوظيفة إلى السياسة، ويتخطى السياسة إلى الاستراتيجية .. فقد كان عالما مجددا، ومصلحا اجتماعيا، ومفكرا سياسيا، ورجل دولة من طراز رفيع.

❑

أساتذتى الأجلاء

لا يمكن لنا الوقوف أمام محمد عبده التربوى دون أن نمر بمحمد عبده المربى الذى أحبه تلاميذه، وتعلقوا به، وتعشقوه، وساروا على دربه، وتمثلوا شخصيته، وجعلوه مثلا أعلى، بل إنهم تصوروه على الدوام نموذجاً للاستدعاء والاستحضار عند كل معضلة فكرية.

لا يمكن أيضا أن نتجاهل محمد عبده المربى الذى كان قادرا على اكتشاف العبقرية وتوجيهها وتبنيها، ويكفى أن نذكر أنه هو الذى اختار سعد زغلول فى شبابه مساعدا له، وأنه مرّ بمديرية أسوان مروراً عابراً فرأى نباهة عباس العقاد فتنبأ له بما أصبح عليه بالفعل، ويكفى أن نعرف أنه هو الذى أجاز كلا من الظواهرى، والمراغى، وعبد المجيد سليم بشهادة العالمية من الدرجة الأولى، وأنه هو الذى عضّد حسونة النواوى. ويكفى أيضا أن نذكر أنه المربى الذى كان يجيد الامتحان والتقييم على نحو ما كان يجيد التدريس والتدريب والتأهيل.

ولا يمكن أيضا أن نتجاهل دور المربى فى شخصيته متمثلا فيما بقى بعد رحيله من مؤلفات معلمة، بل من مؤلفات مربية، بل إن أسلافنا المتنورين فى مديرية البحيرة حين أرادوا تخليده خصصوا الأموال التى جمعوها لهدف تربوى وهو تمويل بعثة علمية إلى أوروبا يبتعث فيها خريجو الأزهر، فكان من هؤلاء الدكتور محمد البهى عليه رحمة الله.

❑

أساتذتى الأجلاء

ربما كان من حقكم علىّ بعد هذه المقدمة الطويلة أن أطلعكم على بعض ملامح الفكر التربوى لمحمد عبده، وعلى بعض ملامح الإنجاز التربوى لمحمد عبده، ولعلى أبدأ بأن ألفت نظركم إلى قدرته على اكتشاف الحقيقة فى أزمة التعليم الأزهرى فى عصره، وهو الذى عانى منها فى صباه حتى كاد يترك العلم والتعلم والتعليم، ثم نذر نفسه من أجل إصلاح نظام التعليم الأزهرى واكتشاف موطن التعقيد فيه وبلور هذا فى قوله:

«إن أهل الأزهر يتعلمون كتبا لا علما، وغرامهم فى حل عبارات المؤلفين والمهمشين والمحشين».

❑

ولهذا السبب أعاد محمد عبده تنظيم التعليم الأزهرى بما يحقق تعلم العلوم لا تعلم الكتب، وربما أننا بحاجة اليوم إلى أن نستهدى بمثل هذه الفكرة فى تعليمنا العام والجامعى على حد سواء.

وكانت لمحمد عبده نظرات صائبة فى أصول التربية وطرق التدريس، وكان أبلغ مَنْ نبه إلى ضرورة المدرسة والتلقى على الأساتذة تنبيهاً نحن أحوج ما

نكون إليه في عصر أصبح بعض ناسه يظن أن بالإمكان التقليل من دورها، وكان يقول:

«إن الكلام المسموع يؤثر في النفس أكثر مما يؤثر الكلام المقروء، لأن نظر المتكلم وحركاته وإشاراته ولهجته في الكلام، كل ذلك يساعد على فهم مراده من كلامه، ويمكن السامع من أن يسأل المتكلم عما يخفى عليه من كلامه، فإذا كان مكتوبا فمَنْ يسأل؟ إن السامع يفهم ثمانين في المائة من مراد المتكلم، والقارئ لكلامه يفهم منه عشرين في المائة».

هكذا كان هذا الرجل العبقري يبلور خبرات تربوية عالية في عبارات لا تستعصي على إدراك أولياء الأمور الأميين الذين هم في البداية والنهاية أصحاب القرار في التوجيه التربوي لأبنائهم، وهكذا نجح في خطاب المجموع والمجتمع في وطن محتل يعاني من الأمية، ولهذا نجح في أن يؤتي خطابه الحضاري والتربوي ثماره.

❑

كان محمد عبده مختلفا في طريقة تدريسه وشرحه عن أستاذه جمال الدين الأفغاني، وللأستاذ أحمد أمين ملاحظة صائبة في ذلك إذ يقول:

«كان الشيخ محمد عبده يقرأ النص أولا ويتفهمه ويفهمه، ثم يفيض في التعليق عليه، وفي بسط الموضوع من عنده، أما أستاذه جمال الدين فكان يشرح الموضوع بإفاضة ثم يقرأ النص».

ولست بمستطيع أن أستغرق وقتكم في الحديث عن مقومات منهجه ومكونات طريقته، لكني أريد أن أصل بكم إلى القول بأن هذا الرجل كان حريصا الحرص كله على التعليم بمعناه الحقيقي، وربما أقفز بحضراتكم إلى الغاية القصوى من هذا

المعنى بأن أشير إلى أن اختلاف محمد عبده مع زعماء الثورة العرابية كان ينحصر فى اهتمامه بتعليم الأمة أولا حتى توكل إليها حقوقها لتكون أمينة عليها.

❑

أساتذتى الأجلاء

أيها الجمع الكريم

كان محمد عبده يرى أن التربية هى التربية الدينية التى هى أساس كل إصلاح، وهو يقرر هذا المعنى فى كثير من المواضع، ويعبر عنه بعبارات حاسمة حيث يقول:

«الإنسان لا يكون إنسانا إلا بالتربية، وهى عبارة عن اتباع الأصول التى جاء بها الأنبياء والمرسلون من الأحكام والحكم والتعليم».

وكان يرى أن التربية هى أساس كل التقدم، وأن التقدم نتيجة تلقائية وحتمية للتربية الجيدة:

«مَنْ يرد خير البلاد والعباد فلا يسع إلا فى اتقان التربية، وبعد ذلك يأتى له جميع ما يطلبه بدون إتعاب فكر، ولا إجهاد نفس».

وكان يؤثر التربية على كل القوانين الوضعية مهما كانت قوتها وإنفاذها.... وهو القائل:

«ليست القوانين التى تفرض العقوبات على الجرائم وتقدر المغارم على المخالفات هى التى تربى الأمم وتصلح شأنها، فالقوانين لم توضع فى جميع العالم إلا للشواذ والهفوات والسقطات، وأما القوانين المصلحة فهى نواميس التربية الملية لكل أمة».

وكان يفهم التربية الحقيقية من منظور اجتماعى فيقول:

«إذا تربى الإنسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره، وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه».

وكان يرى التربية بمثابة الوسيلة الحاكمة للعلاقات الاجتماعية، ولتوجيه هذه العلاقات من أجل سلامة نسيج المجتمع وتقوية صلاته وهو يقول:

«إن التربية الحقيقية هى التى تعلم الإنسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من الأفراد فى جماعته، فهى تعلمه مَنْ هو؟ ومَنْ معه؟ فيتكون بذلك شعور واحد وروابط واحدة هى ما يسمونه بالاتحاد».

❑

كان الأستاذ الإمام يعتقد أن تربية العقول من أهم أهداف التربية:

«... لإخراجها من حيز البساطة الصرف والخلو من المعلومات وإبعادها عن التصورات والاعتقادات الرديئة إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر، والضار والنافع، ويكون النظر بذلك سجية لها».

وكان الشيخ محمد عبده يصل فى إيمانه بالتربية الرياضية إلى أن يصنفها على أنها من سمات النبوة.

وكان الأستاذ الإمام من أوائل من فرقوا بين مدلول التربية ومدلول التعليم:

«إن من المعلوم البين أن الغرض الحقيقى من تأسيس المدارس والمكاتب، والعناية بشأن التعليم فيها إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكن المتربى من نيل كمال السعادة أو معظمها مادام حيا وبعد موته».

وكان كما رأينا فى الجملة السابقة يرى أن التربية عملية إنسانية لا يتوقف أثرها على النجاح فى الدنيا، وإنما تتعدى ذلك إلى ما تمهد له من خلود صاحبها ومن سعادته فيما بعد هذه الحياة.

ولهذا كله كان محمد عبده يرى أن تربية العقيدة تأتى أولا ويليها العلم وهو يقول:

«العقائد الدينية السليمة هى الأساس لكل ذلك، فمن تتبع قوانين التعليم فى الممالك الأوروبية رآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية والاستمرار عليها إلى ما يزيد على ست سنوات تقريبا».

❑

أساتذتى الأجلاء

كان الأستاذ الإمام حفيا بدور الموارد البشرية فى العملية التربوية، وكان يجهر بآرائه فى هذا الصدد فى عصر كان يعلى من قيمة «النظام التربوى» والضبط والربط، ولا يعول على الموارد البشرية كثيرا، لكن الأستاذ الإمام كان متنبها إلى أهمية دور المعلم فى تربية العقل والروح قبل المعرفة:

«فمتى وجد الولد صغيرا فى حجر مهذبين ومعلمين يربون عقله ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم، فلاريب توثر فيه أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم، وتنطبع فى نفسه صور ما هم عليه».

ومن هذا المنطلق كان محمد عبده ينصح كل أب:

«ألا يبعث أولاده وهم صغار لا يعقلون ولا يفهمون إلا ما يلقى إليهم من المعلم أو المؤدب إلى مدارس يتولى التعليم فيها والإدارة مَنْ ليس على مذهبه أو دينه».

كذلك كان محمد عبده واعيا للرقابة المجتمعية والحكومية على المؤسسات التربوية، وكان يطالب المسئولين عن التعليم «بمعرفة أخلاق النظار والأساتذة الذين وضع الأطفال فى كفالتهم، والذين يديرون أمورهم ويرشدونهم إلى كمالهم، إذ يجب أن يكونوا من أصحاب العقيدة الراسخة، والأخلاق الفاضلة، والأفكار المستقيمة، والعفة، والنزاهة، والغيرة على مَنْ وكّل أمرهم إليهم، وأداء ما أوجب فى ذمتهم».

وقد كان محمد عبده يدعو إلى أن يكون المعلم بمثابة القدوة الصالحة لتلاميذه حتى يكون حاله وكماله درسا آخر يُعطى للتلاميذ كل يوم فينطبع هذا الكمال فى نفوسهم بأشد من انطباع صور المعلومات فى عقولهم.

❑

أساتذتى الأجلاء

كان الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده منتبها منذ مرحلة مبكرة إلى أهمية تعليم البنات وكان يقول:

«إن من الجرم الصارخ أن تترك النساء المسلمات حبيسات ذلك السجن الضيق، سجن الجهل والجور والجمود، وهن اللاتى يأخذن على عواتقهن أشق تبعات الحياة اليومية، أعنى تربية الأبناء وإعدادهم ليكونوا رجالا صالحين».

«إن ما يجب أن تعلمه الفتاة من عقائد دينها وآدابه وعباداته محدود، ولكن ما يطلب منها لنظام بيتها وتربية أولادها ونحو ذلك من أمور الدنيا كأحكام المعاملات - فى بيت فيه غنى ونعمة - يختلف باختلاف الزمان والمكان والأحوال، كما يختلف بحسب ذلك الواجب على الرجال».

ومن أجل إقناع المجتمع بجدية دعوته هذه كان يتساءل:

«أى الأمرين أفضل فى نظر الإسلام: تمريض المرأة لزوجها إذا هو مرض، أم اتخاذ ممرضة أجنبية تطلع على عورته وتكشف مخبآت بيته؟».

وكان يردف هذا بسؤال آخر:

«وهل يتيسر للمرأة أن تمرض زوجها أو ولدها إذا كانت جاهلة بقانون الصحة وبأسماء الأدوية؟ نعم قد يتيسر للكثيرات من الجاهلات قتل مرضاهن بزيادة مقادير الأدوية السامة، أو بجعل دواء مكان آخر».

❑

أساتذتى الأجلاء

كان الشيخ محمد عبده يدرك وينبه إلى ما للأدب من تأثير عظيم فى ترقية الذوق وبناء الشخصية، والدلالة على عبقرية الأمة العربية الإسلامية، ولهذا كان اهتمامه العظيم به، وبعلوم البلاغة العربية التى أقبل على شرح أمهات الكتب فيها، وبخاصة وقد شرح عبد القاهر الجرجانى: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز.

كان الأستاذ الإمام أكثر أهل عصره والعصور التالية حفاوة بتعليم اللغة العربية، وكان يراها أساس الدين لأنها حياة المسلمين، وحياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال، فإصلاح اللغة إذاً لابد منه لأنها وسيلة لإصلاح الدين، وقد قال فى خطبة ألقاها فى تونس:

«إن إصلاح لساننا هو الوسيلة المفردة لإصلاح عقائدنا، وجهل المسلمين بلسانهم كن الوصول إليه إلا بتحصيل ملكة اللسان».

أساتذتى الأجلاء

كان الأستاذ الإمام صاحب دعوة رائدة إلى العناية بتعليم الفنون وإلى تدريس الرسم والنحت والتصوير والفنون الجميلة الأخرى، وكان يرى أنه يجب تحبيب تعليم الفنون وتعلمها إلى الناشئين، وكان يفسر معنى الإقبال عليها من الغربيين - لمن يجهله - بأنها عندهم كالشعر عندنا، وأنها لغة نفسية تفرق فى تعبيراتها بين أدق المعانى الشعرية التى لا تظهر التفرقة بينها وبين أسمائها وأوصافها.

وليس من شك فى أن آراء محمد عبده كانت بمثابة أكثر العوامل التى ساعدت على نشأة مدرسة الفنون الجميلة فى مصر التى نشأت عقب وفاته مباشرة.

وقد تصدى لما لا يزال يشاع من شبهة فى تعلم الفنون وتعليمها، وفى هذا المعنى قال الأستاذ الإمام فى فصل كتبه عام ١٩٠٣ :

❑

«يغلب على ذهنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من وجهة العقيدة، ولا من وجهة العقل».

ووصل به الغضب والاستنكار من محاجَّة بعض الناس فى هذه الفكرة إلى أن قال:

«على أن المسلمين (يقصد معارضيه من معاصريه) لا يتساءلون إلا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها، وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو ما سماهم بعضهم من الأولياء وهم ممن لا تعرف لهم سيرة، ولم يطلع لهم أحد على سريرة».

كان الأستاذ الإمام محمد عبده يدعو مبكراً إلى جعل العملية التعليمية غير قاصرة على حجرات الدراسة، وأن يكون من أهدافها تزويد الناشئين بالخبرات المتنوعة عن طريق الرحلات والزيارات ومشاهدة العالم والآثار، وكان هو نفسه ينهج هذا المنهج، وعندما زار صقلية أبدى إعجابه بأهلها لمحافظتهم على آثارها القديمة، وكان فى فهمه الحضارى متقدما حتى على خلفائه، وهو القائل:

«ليس فى ديننا شيء ينافى المدنية الحاضرة المتفق على نفعها عند الأمم المرتقية إلا بعض مسائل الربا».

وإليه يرجع الفضل فى هدم نظرية تعليمية قديمة شجعها الأزهر لبعض الوقت كانت تقول إن هناك علوما تعلم، وعلوما لا تعلم، فقد قرر أن كل العلوم يجب أن تعلم، إلا ما يتخذ شكل العلم وليس بعلم كالسحر والشعوذة.

وإلى الأستاذ الإمام يعود الفضل فى تنظيم العام الدراسى فى الأزهر، فقد حدد بداية العام الدراسى ونهايته، ومواعيد العطلات، وأصبحت مدة الدراسة ثمانية شهر بدلا من أربعة حرصا على وقت الطلاب من الضياع. ولم يترك محمد عبده سنوات الدراسة بالأزهر مفتوحة بغير حد، بل جعل أقصاها خمس عشرة سنة وقسمها إلى فترتين، الأولى يعطى الخريج بعدها شهادة الأهلية،وفى نهاية الثانية يمنح الشهادة العالمية.

وأدرك محمد عبده ما للمكتبات من أهمية خاصة فى التعليم، فحرص على تزويد الأزهر بمكتبة تليق بمكانته العلمية، وإليه يرجع الفضل فى تأسيس دار الكتب الأزهرية لتقف على قدم وساق مع دار الكتب الخديوية، وقد بذل الاستاذ الإمام جهوداً حميدة من أجل تنسيق العمل الذى أدى إلى نشأة هذه المكتبة على نحو يليق بالأزهر وتاريخه .

أساتذتى الأجلاء

لابد لنا من أن نلقى نظرة على النشاط التربوى للاستاذ الأمام خارج حدود وطنه مصر، وإن كان هو نفسه فى ممارسته لهذا النشاط لم يكن يأخذ الأمر على هذا المحمل.

دعى الإمام محمد عبده للتدريس فى المدرسة السلطانية فى بيروت، فأصلح مناهجها، وارتقى بها من مدرسة أولية إلى مدرسة عالية، وقد درسّ فيها التوحيد والمنطق والبلاغة والتاريخ الإسلامى والفقه الحنفى، ولم يقتصر على التدريس فى داخل جدران المدرسة السلطانية، بل كان يفسر القرآن فى مسجدين من مساجد بيروت، وكان يقيم فى بيته ندوة كانت تعمر بالسامعين للحديث فى العلم والأدب.

وقد شرح فى تلك المرحلة نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان الهمذانى، بل كان من آثار دروسه فى بيروت كتاباه الشهيران: «رسالة التوحيد» و«شرح البصائر النصيرية فى المنطق».

كذلك كان يحرر المقالات الداعية إلى إصلاح العالم الإسلامى فى شتى نواحى حياته فى صحيفة «ثمرات الفنون».

وفى هذه الفترة الخصبة التى قضاها فى بيروت تبلورت نظرياته الإصلاحية للتعليم فى البلدان الإسلامية فوضع لائحتين فى إصلاح التعليم الدينى فى مدارس السلطنة العثمانية عند ما أشار السلطان عبد الحميد بتشكيل لجنة برئاسة شيخ الإسلام لإصلاح المناهج فى المدارس الإسلامية، وقد رفع محمد عبده إحدى اللائحتين اللتين وضعهما إلى شيخ الإسلام فى الآستانة، وقد قرر فيها بوضوح أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة والجهل بأصول الدين، وأن ذلك

قد أخر أخلاقهم، ورأى أن العلاج الوحيد هو إصلاح التعليم الدينى الذى رسم له الخطط الجديدة.

أما اللائحة الثانية فقد تقدم بها الأستاذ الإمام إلى والى بيروت، وقد وصف فيها سوء حال التعليم فى سوريا الكبرى من حيث توزعها بين الأهواء السياسية نتيجة انتشار المدارس الأجنبية فيها، واقترح نشر المدارس الوطنية وإصلاح مناهج التعليم الدينى.

❑

أساتذتى الأجلاء

من الواجب أن نشير إلى دروس محمد عبده فى تفسير القرآن التى كان يلقيها فى بيروت فى مسجدين، وفى الأزهر، وفى أحد مساجد القاهرة، وفى أثناء زيارته للجزائر، وفى مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التى كان راعيا لنهضتها، ومن الواجب أن نشير إلى أن هذه الدروس كانت مثالا لما كان يريده فى التعليم الدينى، فقد كان يعنى فى تفسيره بأمور العقيدة وما دخل عليها من فساد فى عصور التخلف والجهل، كما يعنى بأثر الأخلاق والواقع الاجتماعى، كذلك كان يحاول دائما أن يوفق بين الإسلام ونظريات المعرفة الحديثة، ليؤكد عدم وجود فجوة بين العقيدة الصحيحة والعلم الحديث.

❑

وحين كان فى وسع الأستاذ فى الأزهر أن يختار ما يدرسه، اختار محمد عبده أن يدرس المنطق والفلسفة والتوحيد، وكان يقرأ مع بعض طلبته «تهذيب الأخلاق» لمسكويه، و«تاريخ المدنية فى أوروبا وفرنسا» للكاتب الفرنسى فرانسوا

جيزو، وكان حنين نعمة الله خورى قد عرّبه وسماه «التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوروبية».

وحين تصدى محمد عبده لتدريس التاريخ فى مدرسة دار العلوم فإنه درّس مقدمة ابن خلدون التى يراها الناس جميعا اليوم بمثابة أساس علم الاجتماع.

أساتذتى الأجلاء

كان محمد عبده عند عودته إلى وطنه بعد الفترة التى قضاها فى المنفى، طموحا إلى أن يتولى وظيفة المعلم على أى مستوى، وظل يكرر التعبير عن هذا الطموح حتى بعد أن وصل إلى أعلى المناصب القضائية، لكن الخديو عباس حلمى لم يسمح له بالعودة إلى التدريس الذى كان يعشقه و يرى فيه أساس إصلاح الأمة الإسلامية، وكانت للخديو مبرراته من الخوف من تأثير أفكار الأستاذ الإمام الإصلاحية وآرائه على شباب الأمة وهى آراء كفيلة بتجديد روح الحرية والتحرر أو التمرد، ولهذا فقد عينه قاضيا أهليا، وقد عمل الأستاذ الامام فى محكمة بنها، ثم الزقازيق، ثم عابدين، ثم ترقى مستشارا فى محكمة الاستئناف، لكنه ظل طوال تلك الفترة ضيق الصدر بإبعاده عن التعليم، وكان يقول: «ما خُلقت لأكون قاضيا، بل لأكون معلما، وقد جربت نفسى فى التعليم ونجحت».

❑

والواقع أن محمد عبده لم يبتعد عن التفكير فى الإصلاح التربوى حتى فى خضم عمله بالوظيفة القضائية بعد عودته من منفاه، ويذكر لنا التاريخ أنه عكف على كتابة تقرير بعد عودته من المنفى ضمنه وجوه إصلاح التعليم.

أساتذتى الأجلاء

بقى أن أحدثكم فى إيجاز شديد عن بعض جهود محمد عبده فى تعليم نفسه، ولن أحدثكم عن أنه علم نفسه فى بداية حياته بعدما يئس من الأسلوب الأزهرى فى التعليم، ولا عن أنه علم نفسه القوانين المدنية حتى نبغ فيها نبوغا عظيما، لكننى أكتفى بأن أضرب مثلا سريعا وهو أنه أتقن الفرنسية بعدما تعلمها تعلماً ذاتياً وترجم عنها كتاب التربية للفيلسوف الإنجليزى هوبرت سبنسر الذى التقى به من قبل فى أثناء زيارته لانجلترا وأعجب كل منهما بالآخر.

الشيخ مصطفى عبد الرازق

الشيخ مصطفى عبد الرازق إنساناً نبيلاً

لا أكاد أجد فى تاريخنا الحديث والمعاصر كله إجماعا على نبل شخصية من الشخصيات وعظمتها قدر ما أجده من إجماع فى حق هذا الرجل الجليل، يختلف الناس على المصلحين وعلى الزعماء وعلى القادة وعلى الأفذاذ والأبطال، لكنهم يجتمعون على مصطفى عبد الرازق كما لم يجتمعوا على فضل أحد غيره.

ويبدو لى أن هذا الرجل قد أخذ نفسه بمنهج متميز وقاس فى تربية النفس حتى صار إلى ما صار إليه، كما أنه رزق قدراً كبيراً من المزايا الخلقية التى ينشأ عليها الإنسان ويظل حريصاً على التمسك بها.

وقد نال هذا الرجل درجات رفيعة من الوظائف والمكانة، لكنه كان فى كل ما وصل إليه أكبر مما وصل إليه بالفعل، ولك أن تقارنه بنظرائه فى هذه المجالات لتدرك حجم تفوقه على معاصريه وخلفائه وأسلافه.

وهو مع كل هذا واحد من أخوة متميزين جداً بعضهم يكبره وبعضهم يصغره، وهم جميعا أهل فضل، لكن فضله عليهم واضح لكل ذى بصر، ولكل ذى رأى.

هو أول عمامة تصل إلى كرسى الوزارة، وهو أول وزير يصل إلى منصب مشيخة الأزهر، وهو الباشا الذى تنازل عن كل ألقابه حين أصبح شيخا للأزهر مكتفيا بلقب صاحب الفضيلة، وهو أستاذ الفلسفة فى الجامعة المصرية، وهو أكبر من أن يكون رئيسا للقسم أو عميداً للكلية، كان يدفع بالتالين له إلى هذه المناصب لأن مكانته فى نفسه وفى قلوب عارفيه كانت أكبر من أن تحيط بها وظيفة، أو تحجمها وظيفة.. وقد توفى مبكرا لم يعش إلا ريثما تجاوز الستين بعامين فقط، كأنه السلف الصالح الذين كانت أعمارهم تدور حول هذه السن.

إليه يرجع الفضل فى الامتداد بعلوم الفلسفة الإسلامية لتشمل علم الكلام، وأصول الفقه، ساندته فى هذا نشأته وعلمه، وإن لم يسعفه تلاميذه بملاحقته على ذلك الدرب.

كان الشيخ مصطفى عبد الرازق للفلسفة الإسلامية بمثابة على باشا إبراهيم للجراحة، ومن اللافت للنظر أنهما ماتا فى أسبوع واحد ودخلا مجمع اللغة العربية فى يوم واحد، ووليا الوزارة فى حقبة واحدة، مات أحدهما وهو مدير للجامعة المصرية، ومات الآخر وهو شيخ للأزهر.

❑

ولد الأستاذ مصطفى عبدالرازق عام ١٨٨٥ فى «أبو جرج» حيث موطن أسرته الفاضلة الكريمة الكبيرة، ودرس فى كتاب القرية، والتحق بالأزهر الشريف فى نهاية القرن التاسع عشر (١٨٩٦) حيث كان الشيخ محمد عبده هو

نجم الأزهر، وقد انجذب فتانا إليه وإلى دروسه وواظب عليها، وعلى هذا الامام العظيم درس التفسير ، كما درس البلاغة من خلال كتاب «دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجانى.

ونال الشيخ مصطفى عبدالرازق شهادة العالمية (القديمة) من الأزهر الشريف وهو فى الثالثة والعشرين من عمره (١٩٠٨)، فاختير للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى، لكنه لم يلبث إلا قليلا وسافر إلى باريس حيث درس فى السوربون وفى ليون. وفى فرنسا راوح مصطفى عبدالرازق بين التلمذة والأستذة، فدرس الاجتماع وتاريخ الآداب، كما درّس الشريعة الإسلامية فى كلية الحقوق، والأدب العربى فى كلية الآداب، واضطر للعودة إلى مصر بسبب ظروف الحرب العالمية الأولى، وحصل على وظيفة فى الأزهر سكرتيراً لمجلس الأزهر الأعلى (١٩١٥). و هكذا قدر له أن يتصل مرة أخرى بأساتذة كبار عن قرب وحميمية.

❑

وبعد سنوات (١٩٢٠) اختير للعمل بالمحاكم الشرعية كمفتش، ولبث فى هذا العمل بضع سنوات اختير بعدها (١٩٢٧) ليشغل وظيفة الأستاذ المساعد للفلسفة فى كلية الآداب الناشئة حينذاك، وبعد ثمانى سنوات نال درجة أستاذ الكرسى (١٩٣٥)، وقبل أن تنقضى ثلاث سنوات اختير وزيرا للأوقاف فى وزارة محمد محمود باشا الثالثة (إبريل ١٩٣٨)، واحتفظ بهذا المنصب فى وزارة محمد محمود الرابعة (يونيو ١٩٣٨)، لكنه لم يشارك فى وزارة على ماهر الثانية (أغسطس ١٩٣٩)، وشارك فى وزارة حسن صبرى الأولى (يونيو ١٩٤٠)، وفى وزارتى حسين سرى الأولى والثانية (نوفمير ١٩٤٠ ويوليو ١٩٤١)، وهكذا ظل

وزيرا للأوقاف معظم الفترة منذ إبريل ١٩٣٨ وحتى عاد الوفد إلى الحكم فى فبراير ١٩٤٢ . ولم يكن استمراره هذا كالعهد بتبادل المواقع الوزارية، لكن ظروف اشتراك الأحرار الدستوريين فى الوزارات التالية لوزارات محمد محمود الكبرى سمحت بهذا الوضع.

وبعد خروج الوفد من الحكم فى أكتوبر ١٩٤٤ عاد الشيخ مصطفى عبدالرازق للعمل وزيراً للأوقاف فى وزارتى أحمد ماهر الأولى والثانية (أكتوبر ١٩٤٤ ويناير ١٩٤٥)، ثم النقراشى الأولى (فبراير ١٩٤٥)، وقبل نهاية عهد الوزارة صمم النقراشى على اختيار مصطفى عبدالرازق ليكون شيخا للأزهر عقب وفاة الإمام محمد مصطفى المراغى، وكان قد أصبح أقدم وزراء الأحرار الدستوريين المشتركين باتصال فى الائتلاف، وذلك بعد خروج زميله الدكتور محمد حسين هيكل باشا من الوزارة ليتولى منصب رئيس مجلس الشيوخ.

لم يلبث الشيخ مصطفى عبد الرازق فى منصبه كشيخ للأزهر إلا إلى يناير ١٩٤٧ حيث توفى فجأة بعد عام واحد من توليه مشيخة الأزهر.

❑

أساتذتى الأجلاء

نعلم أن آثار مصطفى عبدالرازق قليلة لكنها ذات قيمة علمية كبيرة، ويبدو أن محاضراته الشفوية كانت فى حاجة إلى التسجيل والتوثيق، وإذا كنا نحكم على أهل العلم بمن اختاروهم من أسلافهم للترجمة لهم، فإن بوسعنا أن ندرك طابع مصطفى عبدالرازق ممن ترجم لهم، فقد ترجم للكندى والفارابى فى كتاب أسماه «فيلسوف العرب والمعلم الثانى»، ونشر أيضا كتابا عن الإمام الشافعى

واضع أصول الفقه ، كما ترجم للإمام محمد عبده، كما أبَى «التكوين الشاعرى» فى شخصيته إلا أن يعبر عن نفسه من خلال ترجمته للبهاء زهير.

وبالإضافة إلى هذه التراجم فإن للشيخ مصطفى عبدالرازق كتابا سماه «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية»، كما أن له كتابين مخطوطين فى المنطق والتصوف، وكتابا ثالثا بعنوان «فصول فى الأدب».

على أن ما يدلنا على قيمة علم هذا الأستاذ وإمكاناته الكامنة التى لم يقدر لها التبلور على أرض الواقع، هو أن نعرف جهده فى ترجمة «رسالة التوحيد» للشيخ محمد عبده إلى اللغة الفرنسية مشتركا فى هذا مع العالم الفرنسى برنار ميشيل، وقد وضعا أيضا بالاشتراك معاً كتابا آخر عن الشيخ محمد عبده .

لعل هذا بعض ما يصور سير حياة هذا الشيخ المصلح الذى حرمت بلاده مبكراً من استمرار جذوة عقليته، وإن لم تحرم من آثاره فى تلاميذه والمتشيعين له، ويكفى أن نذكر أن أثر هذا الأستاذ قد امتد حتى الأيام التى نعيش فيها الآن، فقد كان هو بمثابة الأستاذ الروحى المفضل عند الشيوخ الذين فازوا فى السنوات الأخيرة بأرفع جوائز الدولة، وهى جائزة مبارك ومَنْ رشحوا لها؛ فهو على سبيل المثال الأستاذ الذى لا أستاذ بعده عند عبدالرحمن بدوى، وهو الأستاذ الأثير عند نجيب محفوظ الذى عمل له سكرتيرا بعد أن كان له تلميذا، وهو الأستاذ الفاضل العظيم الذى يحتل القمة عند أنيس منصور، وعند عبد القادر القط، وعند شوقى ضيف.

❑

ولعلى أخرج من هذا إلى أن أنقل بعض الآراء التى تضمنتها مذكرات وكتابات بعض هؤلاء عن هذا الرجل الفاضل، وقد كُتبت معظم هذه الفقرات

على مدى خمسين عاما من رحيله.. وكأنما لم تنل السنوات المتتالية من قيمة هذا الرجل فى نفوس وعقول وقلوب تلاميذه وعارفى فضله.

وابدأ بأن أنقل بعض فقرات من كلمة الأستاذ أحمد أمين فى تأبينه:

«ترك فى نفس كل مَنْ عرفه فراغاً لا يملأ، ولوعة يعز عليها الصبر. كان - رحمه الله - متميزاً فى خلقه، متميزا فى أدبه، متميزا فى علمه. نفس كريمة سمحة، وقلب عطوف رحيم، وصدر واسع رحب، لا يحمل حقداً، ولا ينطوى على ضغينة، وحلم رائع لا يستفزه نزق، ولا يستخفه غضب».

....

«أخذ من الأرستقراطية أجمل ما فيها، ومن الديمقراطية أجمل ما فيها. أناقة فى الملبس من غير بهرجة، ورشاقة فى الحركة من غير تصنع، وأدب فى الحديث من غير ترفع، ودِعَةٌ فى النفس من غير تكلف. فامتلأت منه نفسى، وأحببته وصادقته فى جلسة، وتأكدت الصداقة بيننا على مر الأيام، وأشهد أنى لم أر منه ما يخدش الصداقة أو يعكر صفو الود، وهكذا كان شأنه - رحمه الله - مع كل صديق».

....

«سمح كريم النفس، يبذل العطاء للبائس والمحتاج، فكم بكَنْه أسر كان يعولها فى الخفاء، وكم له من يد على اليتامى والفقراء، وكم أنفق فى تعليم محتاج، وكم سعى فى توظيف عاطل، أو دفع الظلم عن مظلوم، أو إيصال الخير لمستحق. وأسعفه على ذلك ماله الخاص، فأنفق منه الكثير، ومركزه فى الجمعية الخيرية الإسلامية ووزارة الأوقاف فتعاون ماله الخاص والمال العام على رفاعة المعروف على البائسين والمحتاجين والمنكوبين، فكان نفاح اليدين، وغيث

المعروف. وكان من طيب نفسه لا يحقد على مجرم أو مسيء أو مذنب، على حين يتهلل للمحسن والخيِّر والنبيل، فكان خلاصة فلسفته فى ذلك: الجبر فى الإساءة، والاختيار فى الإحسان. فهو لا يكره خصومه، ولا يبغض من أساءه، ولكنه يحب من أحسن ويحب كل الحب أصدقاءه».

❏

أساتذتى الأجلاء:

لايخلو عمل استرجاعى من أعمال نجيب محفوظ من الثناء على أستاذه مصطفى عبدالرازق وهو يقول فى مذكراته التى سجلها الأستاذ رجاء النقاش:

.. «الشيخ مصطفى عبد الرازق هو مثال للحكيم كما تتصوره كتب الفلسفة، رجل واسع العلم والثقافة، ذو عقلية علمية مستنيرة، هادئ الطباع، خفيض الصوت، لا ينفعل ولم أره مرة يتملكه الغضب. كان الشيخ مصطفى عبد الرازق من أنصار حزب الأحرار الدستوريين، ويعرف أننى وفدىٌ صميم، ومع ذلك لم تتأثر علاقتنا أبدا» .

❏

وهو أبرز الذين يحظون بثناء الدكتور عبد الرحمن بدوى من أساتذته، ومذكرات بدوى لا تمل من الثناء على هذا الرجل العظيم الذى لم يجد الزمان حقيقة بمثله على حد ما تصفه هذه المذكرات . ونحن نقرأ فى هذه المذكرات ما يشير به عبد الرحمن بدوى إلى أن علاقته بالشيخ مصطفى عبد الرازق ربما تزيد فى عمقها على علاقته بطه حسين:

«ويوازى هذه العلاقة [يتحدث عن علاقته بطه حسين] وربما يزيد عليها عمقا، علاقتى بالشيخ مصطفى عبد الرازق».

بل إن عبد الرحمن بدوى يشير إلى سرعة الألفة بينه وبين هذا الأستاذ العظيم:

«سرعان ما نشأت بينه وبينى علاقة وثيقة بعد مرور شهر واحد من بدء الدراسة».

❑

ولا تمل مذكرات عبد الرحمن بدوى من الثناء على الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مواضع عديدة ننقل منها قوله واصفا شيخه:

«لقد كان النُبل كله، والمروءة كلها. كان دائما هادئ الطبع، باسم الوجه، لا يكاد يغضب، وإن غضب لم يعبر عن غضبه إلا بالحمرة فى وجهه وصمت كظيم: لقد كان آية فى الحلم والوقار، لكنه وقار عفو الطبع، لا تكلف فيه ولا تصنع، وفى حالات الأنس بمحدثيه من الأصدقاء أو التلاميذ كان ودودا محبا للسخرية الخفيفة، وإذا أراد التقريع لجأ إلى التهكم اللاذع».

«وكان آية فى الإحسان إلى الآخرين، ما لجأ إليه مظلوم إلا حاول إسعافه، أو صاحب حاجة إلا بذل له ما استطاع حتى لو كان من ماله. وكم له من أياد بيضاء على بعض طلابه الذين سألوه المساعدة، رغم أنهم لا يستحقونها، كما تجلى فى سلوكهم فيما بعد!».

«وكان عزوفا عن المناصب الإدارية، ويتنازل عنها لمن هو حريص عليها. أذكر أنه فى شهر مايو سنة ١٩٣٦ أجريت انتخابات لمنصب العمادة فى كلية الآداب بعد أن شغر بنقل منصور فهمى إلى دار الكتب، فنال الشيخ مصطفى أكبر عدد من الأصوات، وتلاه الدكتور طه حسين، وحينئذ أعلن الشيخ مصطفى أنه لا يريد تولى منصب العميد، فكان أن عين طه حسين عميدا، كذلك كان

الشيخ مصطفى رئيسا لقسم الفلسفة، فلما جاءنا الأستاذ أندريه لالاند فى أكتوبر سنة ١٩٣٧ تخلى له الشيخ مصطفى عن رئاسة القسم تقديرا لمكانة لالاند».

❑

«كان متحرر الفكر اجتماعيا، يدعو إلى تحرير المرأة، ومن هنا كان يكتب فى مجلة «السفور» مقالات ذات نزعة تحريرية للحياة الاجتماعية، وقد أعيد طبع هذه المقالات فى الجزء الأول (والوحيد الذى ظهر) من كتاب «آثار مصطفى عبدالرازق» الذى أشرف على جمعه وإخراجه أخوه الأستاذ على عبد الرازق، وهذا التحرر الاجتماعى هو الذى كان هدف هجمات الأزهريين عليه، خصوصا حين صار شيخا للأزهر فى ديسمبر سنة ١٩٤٥».

❑

أما حديث الدكتور شوقى ضيف عن الشيخ مصطفى عبد الرازق فيحفل - على عادة كل حديث فى شأن هذا الشيخ العظيم - بكل ما هو ممكن من الثناء على هذه الشخصية الفذة النبيلة المعطاءة بغير حدود، ومع أن علاقة شوقى ضيف بأستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق لا تصل إلى حدود علاقة طلاب قسم الفلسفة من أمثال نجيب محفوظ وعبد الرحمن بدوى، فإن حب شوقى ضيف لهذا الرجل الفذ لا يقل عن حبهما، كما أن تعبيره عن هذا الحب لا يقل عن تعبيرهما، وهو يقول:

«... وعين الشيخ مصطفى بكلية الآداب أستاذا مساعدا للفلسفة الإسلامية، وظل يحتفظ بزيه الأزهرى فى صورة أنيقة دون بهرجة، وكان يحف به وقار ومهابة وجلال، كما كان يحف به حب طلابه لسماحة نفسه وكريم شمائله. إذ

كان يفتح قلبه لهم، وكان غاية فى التواضع وأدب الحديث دون أى ترفع، وكأنه أب رءوف أو صديق عطوف».

«وكان يذهب فى محاضراته مذهبا لم يُسبق إليه، هو أنه ينبغى ألا يعوّل فى دراسة الفكر الإسلامى على كتب الفلسفة الإسلامية وبيان جذورها وفروعها فيه، بل يعوّل على كتب أصول الفقه والتشريع الإسلامى حيث يتضح اتضاحا تاما استقلال هذا الفكر وأنه لا يستمد من مصادر أجنبية، بل يعتمد على ذاته إذ نشأت مقوماته وتطورت داخل العقل العربى الإسلامى الخالص، وكان يتتبع حياة هذا الفكر وأصوله تتبعا علميا خصبا».

....

«وكان الفتى ورفاقه يشغفون شغفا شديدا بمحاضرات الشيخ مصطفى عبد الرازق وما يثير فيها من آراء وأفكار، وكان قد تعمق الثقافتين: الأزهرية القديمة والفرنسية الحديثة، فكان محافظا، وفى الوقت نفسه كان مجددا، أو بعبارة أخرى كان يجمع بين المحافظة وخير ما فيها والتجديد وخير ما فيه، فهو من الرعيل الذى استظهر إلى أقصى حد شخصية أمته الإسلامية العربية المصرية مع التزود بالفكر الغربى الحديث تزودا من شأنه أن يجلو هذه الشخصية ويبرز خصائصها العقلية على نحو ما كان يبرز الشيخ مصطفى عبد الرازق الفكر الإسلامى بخصائصه ومقوماته وطوابعه».

«وكان لا يزال يعرض على الفتى ورفاقه فى محاضراته آراء الفلاسفة والمفكرين الغربيين والعرب من أمثال رينان، وكارادى فو، وجولد تيسهر والشهرستانى، وابن القيم، وابن خلدون، ويناقشهم جميعا محاولا بكل قوته أن يرفع صرح الفكر العربى الإسلامى فى مجال أصول الفقه، لبنة من فوقها لبنة، وفكرة تعلوها فكرة، وكان حين يتناول آراء القدماء والمحدثين من العرب

والغربيين يحصيها ويستقصيها مع الإنصاف الشديد فى عرضها دون أى تحيف أو تعصب لفكرة أو لشخص، وكأنما كانت فى يديه موازين عادلة، فهى تزن بالقسطاس دون أن تميل يمنة أو يسرة، وكان لهذا الإنصاف والعدالة فى الأحكام والآراء أثرهما البعيد فى نفس الفتى، إذ تعمقا ضميره ووجدانه».

❑

ويتحدث الدكتور شوقى ضيف عن نمو علاقته بأستاذه مصطفى عبد الرازق فيقول:

«ورأى الشاب أن يزور أستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق، وقد لقيه فى منزله لقاء كريما، ولم يكن منزلا أو قصرا للأسرة فحسب، بل كان أيضا منتدى كبيرا يجمع الأزهرى العصرى والمثقف ثقافة قديمة، والمثقف ثقافة حديثة، والوزير وغير الوزير من رجال الفكر والقلم، وكان أستاذه كوكب هذا النادى بما يجمع من الثقافة الحديثة والفكر الجديد مع التمسك الشديد بالشريعة الإسلامية وروح الإسلام».

«وكل مَنْ عاش هذه الحقبة فى تاريخ مصر يعرف ما كان لهذا المنتدى من التأثير الواسع فى الفكر المصرى حينئذ، فلما ألم به الشاب راعه وقار المجلس ومَنْ فيه، ولاحظ ذلك عليه أستاذه، فأخذ يتلطف إليه وبلغ من تلطفه أن كان حين يعرِّف جلساءه به واحدا بعد واحد، يذكر لهم منصبا جامعيا رفيعا آملا أن يشغله الشاب بعد حين، وأخذ يقترب منه فى الحديث مع أدب بالغ حتى يدنيه منه، وحتى يرفع عنه ثقل ما أحسه فيه من كلفة، حتى إذا رأى الشاب الانصراف ضرب له موعدا آخر يلتقى به».

«ولم يكن هذا اللقاء الكريم للشاب شيئا آثره به الشيخ مصطفى عبد الرازق، فقد كان يلقى تلاميذه جميعا هذا اللقاء الباش البار، وإن الشاب ليذكر ذلك كأنه بالأمس».

❑

أما الدكتور محمد على العريان أستاذ التربية فيقول فى مذكراته :

«..وفى كلية الآداب تلألأ فؤادى بكثير من الدرر التى خرجت من بين شفتى طه حسين ومصطفى عبد الرازق الذى كان اسمه كالزهرة يجذب إليه كل راغب فى الرحيق. أما طه حسين فكان اسمه كهتاف النجدة. أريد أن أعيد قراءة كثير مما درسنا على يد هؤلاء الأساتذة الذين علمونا استقلال الفكر والتفكير والتمحيص».

و فى مواضع كثيرة يذكر الدكتور العريان بعض أقوال هذين الرجلين بالذات:

«وطه حسين هو الذى قال لنا: اقرأوا القرآن عبادة وتدبرا وتفكرا».

«ومصطفى عبد الرازق الأنيق الرشيق هو الذى قال لنا: ما لم تفكروا وما لم تكوّنوا لأنفسكم فلسفة فى الحياة نتيجة للتفكير، فلسوف تظلون فى ضحالة وهزال؛ وأتعسُ الناس مَّن تزيد معرفته ويقل تفكره».

❑

ويأتى حديثُ كثير من المفكرين والأدباء عن الشيخ مصطفى عبد الرازق مقترنا بحديثهم عن أسرته وجهودها فى الحياة العامة والثقافية، وتحظى هذه الأسرة بثناء متصل من المؤرخ الكبير الأستاذ محمد عبدالله عنان، وهذه فقرة من حديثه عن هذه الأسرة:

«... وكان من آثار وجودى فى تحرير «جريدة السياسة»، أن اتصلت فيمن اتصلت بهم، بآل عبدالرازق: مصطفى عبد الرازق، وعلى عبد الرازق، ومحمود عبد الرازق، وكان مصطفى وعلى يكتبان فى السياسة من آن لآخر، وكان أخوهما محمود باشا من قادة حزب الأحرار الدستوريين، بل قائده الأول، وكنت أتردد من آن لآخر مع الدكتور هيكل على منزل آل عبد الرازق الواقع خلف سراى عابدين».

❑

وسرعان ما أدركت ما كانت عليه هذه الأسرة من العراقة والنبل، وما كان عليه أولئك الأخوة الثلاثة من رفيع الخلال، بل أستطيع أن قول إنى لم أشهد بين الأسر المصرية العريقة أسرة تضارع آل عبد الرازق فى رقة الخلال، وفى الكرم، والأدب، والتواضع، ورحابة الصدر. أذكر أنى كنت مع الدكتور هيكل ذات يوم فى حديقة منزل آل عبد الرازق، وجاء السفرجى يقول: «تفضلوا .. الأكل جاهز»، فقمت أستأذن الدكتور هيكل فى الانصراف، فقال لى: «إلى أين؟»، فقلت: «إنى لم أُدْعَ إلى الغداء»، فقال: «وأنا كذلك لم أدع، ولكن تقليد آل عبد الرازق أن يشترك دائما فى السفرة مَنْ وجد من الأصدقاء والزوار، سواء كانوا من المدعوين أم لا».

«ولقد توثقت علاقتى على مر الأيام بالأستاذين الكبيرين مصطفى عبدالرازق وعلى عبد الرازق، وكان الأستاذ على فى أواسط العشرينيات يشرف على إصدار مجلة شهرية، تسمى مجلة «الرابطة الشرقية»، تعنى بشئون الأمم الإسلامية الشرقية، فدعانى إلى المساهمة فى تحريرها، فاستجبت مغتبطا».

ويذهب الأستاذ خليل السكاكيني الذى خلف الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كرسيه فى مجمع اللغة العربية إلى تصوير الشيخ فى صورة العالم الموسوعى المتفوق الذى أحاط بالعلوم إحاطة متمكنة كانت تؤهله لريادتها:

«لو لم يسبقه الخليل بن أحمد، لكان هو أول من وضع علم العروض ، ولو لم يسبقه سيبويه لكان هو إمام النحاة غير منازع ، ولو لم يسبقه عبد الرحمن بن عيسى الهمذانى صاحب كتاب «الألفاظ الكتابية» لكان هو أول من جمع شذور العربية الجزلة فى أوراق يسيرة، ولو لم يسبقه ابن خلدون لكان هو أول من وضع علم الاجتماع ، ولو لم يسبقه أرسطو لكان هو أول من وضع علم المنطق..، ولو فسح له فى الأجل لكشف القناع عن حقائق كثيرة مجهولة» .

❑

وكتب الأستاذ إبراهيم زكى خورشيد يصف الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتابه «صور ضاحكة» فقال ضمن ما قال :

« ... ما رأيت فى حياتى وجهًا أصبح من وجهه ولا أنضر، يبتسم فيتلألأ محياه ببشر صاف كاللؤلؤ، ويمشى فترى فى مشيته الوقار الأنيق، أجل كان أنيقًا فى كل شيء، فى خلقه، وفى نبله، وفى أريحيته، وفى عراقة أصله، وفى عمله، وفى أسلوبه، بل فى ضحكته! تعرفه فيبهرك منه أنس يفيض وود يشيع، وعطف حانٍ يغمرك به فلا تملك إلا الإعجاب بهذه السجايا الجليلة كلها التى تستل من قلبك ما قد يعلق به من شوائب، وتشعر حيال هذا الرجال بالطمأنينة تملأ شعاب نفسك، فتهدأ بعد ثورة، وتصفو بعد كدر، وتسكن بعد غل»

«وللرجل فى أعناقنا دَيْنٌ كبير لا نستطيع أن نوفيه حقه مهما فعلنا، فهو صاحب الفضل الأول فى نجاحنا فى ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، وذلك

أننا ما إن بدأنا هذا المشروع الكبير حتى رجعت إلينا حملة مسعورة مسمومة اشترك فيها للأسف بعض أساتذتنا الأجلاء، وتعرضنا لهجوم قاس مرير، فكنا بفضل تشجيعه نواصل الليل بالنهار فى العمل الدائب والجهاد المرير، ويكاد يغلبنا اليأس فنلقاه بوجهه السمح وبشاشته الآسرة وعطفه الأبوى الكريم فيتبدد هذا اليأس، ونخرج من داره العامرة بزاد روحى جديد ونفحة عقلية من نفحاته تحثنا على مواصلة العمل وألا نضع جميع العقبات أمامنا، بل نحاول أن نتغلب على كل عقبة حين تنشأ، كما وجه إلينا هذه الحكمة البليغة وهى أن الاستمرار كفيل بقطع ألسنة النقد المغرض والحسد المقيت».

....

«وأصبح بيته ندوة علم وأدب يجتمع فيها العلماء وشيوخ الأزهر والأدباء، وفيهم المسلم والمسيحى، والعربى والأجنبى، كما تضم الرجال والنساء».

«وقد أمدت هذه الندوة النهضة بلون طريف من العلم والأدب، وأظهرت بين المصريين طائفة ذات طابع خاص فى الثقافة يمتزج فيه القديم بالحديث، وتتآلف عنده الفلسفة والدين، وتتفتح فى رحابه آفاق البحث، وتنطلق تحت ظلاله مذاهب الفكر، ولاشك أن مصطفى كان - من حيث يريد أو لا يريد، ومن حيث يدرى أو لا يدرى - هو مدار هذه الحركة وقطبها».

«وقد كنا نؤم هذه الندوة ونتعلم منها الكثير، وكان الحاضرون يُدْعَون جميعا إلى الغداء إذا حلّ وقت الغداء، ويقام لهم جميعًا العشاء إذا أقبل وقت العشاء، بل إن معظم الأساتذة فى جامعة القاهرة إذ عادوا بعد إتمام دراستهم فى أوربا كانوا يعدون دروسهم فى بيت الشيخ مصطفى على اختلاف تخصصاتهم فى الأدب أو فى اللغة أو فى الفلسفة».

«ولست أنسى أيضا محاضرة له ألقاها بالفرنسية فى الجمعية الجغرافية يوم كانت جديرة بهذا الاسم، وهو فى زيه الأزهرى الأنيق، ووجهه الطلق السمح، وأناقته الوقور البادية، وقال فى ختامها قولته المشهورة: «الدين واحد والشرائع تختلف» فصفق له الأجانب رجالاً ونساءً، والتفوا به بعد المحاضرة، فكان يلتفت إلى هذا ويحيى هذه فى بشاشة محببة وأناقة ساحرة، حتى راحت فضليات النساء الأجانب يصِحْن: «ما أجمل هذا الشيخ وأظرفه، ويا لعلمه وأُفقه البعيد، وسماحته المشهودة»!.

❏

ولست أجد فى وصف سجايا الأستاذ مصطفى عبد الرازق أبلغ من كلام زميله وعارف فضله الدكتور طه حسين حيث يقول:

«وإذا كان حب العلم وطلابه المخلصين هى الخصلة الأولى من الخصال التى لزمته حياته كلها، فخصلة الوفاء هى الخصلة الثانية من خصاله؛ فقد عرفته محبًا للعلم وطلابه كأشد ما يكون الحب وأصدقه وأعمقه، يسعى إليهم ويقربهم منه، ويؤثرهم بالخير وينزلهم من نفسه مكانة الصديق. وعرفته وفيًا لكل من أحب من الناس، لا يفرق بينهم فى ذلك، مهما تكن الظروف، ومهما يبعد بينهم الزمان، ومهما تلم الأحداث وتدلهم الخطوب»

«وكان وفيًا للذين عرفهم، وحسنت الصلة بينه وبينهم من الأساتذة الفرنسيين حين أقام فى فرنسا طالبًا للعلم الحديث بعد أن أخذ بحظه من العلم القديم فى مصر».

«والبر بطلاب العلم خاصة وبكل من يحتاج إلى البر عامة، كان الخصلة الثالثة من خصال مصطفى عبد الرازق، فلم أعرف قلبًا أبرَّ بفقير، ولا نفسًا أرق لذى حاجة، ولا يداً أسرع إلى العطاء من قلب مصطفى عبد الرازق ونفسه ويده».

«كان أستاذاً فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، وكنت عميداً لها فى بعض الأوقات، وكان فقراء الطلبة أكثر مما تحتمل قواعد المجانية فى الكلية إذ ذاك، فكان يسعى إلى فى بعضهم، فأجتهد له فى ذلك، حتى لا أجد سبيلاً إلى الاجتهاد، فأشهد ما تخلّفَ قط عن أداء نفقات التعليم عن أولئك الذين كانت تضيق بهم القواعد، وكلّمْتُه فى ذلك ذات يوم وقلت له: توشك ألا تجد شيئًا من مرتبك آخر الشهر، فضحك ضحكة حلوة وقدم إلى سيجارة من نوع جديد، كما كان يقول، ثم ألقى بهذه الكلمة التى لم أنسها قط، والتى ينبغى أن يذكرها كل قادر على العون: «وماذا تريد أن نصنع بهؤلاء الطلاب؟ أتريد أن نتركهم يصدون عن العلم ونحن نرى» ؟.

« كان وفيًا وكان أبيًا، وكان برا، وكان سمح الطبع والنفس والقلب.. ولم أره قط يخرج عن هذه الخصال، كلها تأثير فى حديثه إذا تكلم، وفى فنه إذا كتب» .

«هذا هو مصطفى عبد الرازق: إمام فى خُلقُه، إمام فى دينه، إمام فى علمه، إمامٌ فى أسلوبه، إمام فى أدبه، رحمه الله رحمة واسعة»

❑

وقد ظل مصطفى عبدالرازق يمثل صورة ذلك التلاقى النموذجى بين حضارة الغرب الوافدة وحضارة الأزهر الأصيلة، فضلاً عما امتاز به من جمع بين المحافظة والتجديد على نحو ما أشار الدكتور شوقى ضيف فى فقراته التى نقلناها عنه، ولعله كان بمنزلة النموذج الأول للعالم الأزهرى الذى عاد من الغرب ليرتدى زيه الأصلى وليعمل فى مجال عمله الأصلى بروح تجمع بين هذا وذاك، وليس من العجيب أن نقرأ هذا التصوير [المنسوب إليه] لحاله حين عاد إلى لبس العمامة وهو فى حجرته من الباخرة قبل أن ينزل إلى شاطئ الإسكندرية، وهو ما يصوره المستشار طارق البشرى فى حديثه فى مجلة الهلال عن تكوينه هو نفسه حيث يقول:

«... أما العمامة فكانت لجدى لأبى الذى كان شيخا للأزهر، ولسبعة من الأعمام تخرجوا جميعا فى الأزهر وعملوا به ، ولجدى لأمى الذى تخرج فى الأزهر ثم عاد إلى قريته. أما الطربوش فكان لأبى أصغر أخوته، وأول من انتقل إلى المدارس الحديثة فتخرج فى كلية الحقوق واشتغل بالقضاء الأهلى، ثم لأولاد الأعمام جميعا الذين سلكوا بلا استثناء إلى المدارس الحديثة فى العلوم والمهن المختلفة، ثم لكل من اتصلت بهم على مسيرة الحياة من مدرسى المدارس إلى غالب أساتذة الجامعة إلى الزملاء والأقرباء وآباء الأصدقاء وغيرهم، هى ذات الشرعية الاجتماعية تنتقل من نوع تعليم إلى نوع آخر، ومن عادات عيش إلى عادات أخرى. وقد شاهدت هذا الانتقال بدرجاته وصوره فى الملابس والمساكن ونوع السلوك، وهذه الدرجات والتنويعات والظلال التى تشغل طريق الانتقال من حال إلى حال، وعرفت كيف يكون نظر الإنسان مشبوبا إلى مستقبل يحقق صور الحياة التى تملأ الرءوس المطربشة من حيث التقدم بالصور التى راجت بين جيل أبناء المدارس الحديثة من شباب ١٩١٩ ، وكيف يعود إلى العمامة، ولسان حاله يردد مع الشيخ مصطفى عبدالرازق، عندما عاد من أوروبا بالباخرة، وفى ليلة الدخول إلى الإسكندرية رجع إلى ملبسه الأزهرى وشعر إزاء زملاء الحجرة أنه انتقل من جيلهم إلى جيل آخر، لكنه أشاح عن الأسى وقال: «أيتها العمامة: عزيزة أنت رغم كل شىء».

هكذا يتحدث المستشار طارق البشرى وهو يواصل حديثه كأنما يستلهم روح الشيخ مصطفى عبد الرازق فيقول :

«عرفت هذا وذاك وعرفت أن جل ما كان فى جيل المطربشين من شباب ١٩١٩ أنهم رغم شعورهم بالتفوق على ذوى العمائم فى حاضرهم ومستقبلهم، ورغم ما اندس إليهم من وجوه الانبهار بحاضر أوروبا، وأقصد بالانبهار هذا

الشعور بالإعجاب الذى يبلغ حدا يميل بالمبهور إلى التقليد ويضعف لديه المقدرة على التوازن فى الاختيار، رغم كل ذلك فقد كان [أى الجيل، وربما لا يختلف الأمر لو جعلنا الضمير يعود على الشيخ مصطفى عبد الرازق الذى نظن أن طارق البشرى قد استحضر صورته وهو يتحدث فى هذه الفقرة] موصول العروق بالرءوس المعممة، مقرا ومعتزا ببنوته لهؤلاء، وظل جيلا مشمولا فى غالبه بفكرة «القداسة» وأن العمل لا يقابل الأجر فقط، وإنما يقوم أداء للرسالة، لذلك لم يكن غريبا أن يتردد على ألسنتهم وصف «القاعة المقدسة»، سواء على دار البرلمان و دار القضاء أو دار التعليم، لأنه وصف استصحبوه من المهام التقليدية للمسجد، تشريعا وقضاء وتعليما، ورغم أن الموصوف بالقداسة لديهم كان من المؤسسات الوضعية الحديثة ذات النظم الوافدة، فقد كانوا يجتهدون فى إخضاعها للهضم الفلسفى الحضارى الموروث».

❑

وقبل كل هؤلاء جميعاً يقول له أستاذه الشيخ محمد عبده فى إحدى الرسائل:

«ما سررت بشئ سرورى أنك شعرت فى حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك ، فلله أنت ولله أبوك ، ولو أذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء، ولكننى أكتفى بالإخلاص فى الدعاء أن يمتعنى الله فى نهايتك بما تفرّسته فى بدايتك».

واختتم هذا الحديث عن النبل فى شخصية مصطفى عبد الرازق بما كتبه الشيخ مصطفى عبدالرازق نفسه فى ١٨ يناير ١٩٤٧ أى قبل وفاته بأيام:

«صرفتنى الأقدار عن حياة المنطق إلى حياة ليست بمنطقية».

كأنما كان هذا العالم الجليل يتحسر على الزمن الذى ضاع منه فى المناصب الكبيرة بينما كان أولى به أن يخلو فيه إلى نفسه.

كتب للمؤلف

فى التراجم :

■ **الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً**

سيرة حياة المفكر المصرى الكبير محمد كامل حسين (١٩٠٢ ـ ١٩٧٧) صاحب «قرية ظالمة» و«وحدة المعرفة» و«الوادى المقدس» و«النحو المعقول» و«التحليل البيولوجى للتاريخ».

فاز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب (١٩٧٨)، صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٧٨، وضمت الطبعة الثانية أبواباً وفصولاً لم تضمها الطبعة الأولى.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٢.

■ **مشرفة بين الذرة والذروة**

سيرة العالم المصرى الكبير الدكتور على مصطفى مشرفة (١٨٩٨ ـ ١٩٥٠)، وإنجازاته العلمية ومدرسته الرائدة وأفكاره الاجتماعية وقدراته البيانية والموسيقية، وببليوجرافيا بإنتاجه وما كتب عنه، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٨٠، ونال جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم (١٩٨٢).

الطبعة الثانية، مكتبة مدبولى، ٢٠٠١.

■ **سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى**

يستعرض الإنتاج الفكرى والأدبى للدكتور أحمد زكى (١٨٩٤ ـ ١٩٧٥) فى كافة الميادين ويعرض آراءه وفلسفته فى الحياة والعلم والسياسة والفكر والاجتماع، وتتميز الطبعة الثانية باحتوائها على الببليوجرافيا الكاملة لإنتاج الدكتور أحمد زكى فى كتبه ودراساته وترجماته ومقالاته المتنوعة فى مجلات: الرسالة، والثقافة، والهلال، والاثنين، والدنيا، والعربى وغيرها.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٣.

■ **أحمد زكى : حياته وفكره وأدبه**

يضم هذا الكتاب معظم فصول الأبواب الأولى من كتاب سيرة حياة العالم الأديب الدكتور أحمد زكى.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٤.

■ **الدكتور على باشا إبراهيم**

سيرة حياة رائد الطب المصرى فى العصر الحديث د. على إبراهيم (١٨٨٠ ـ ١٩٤٧) وإنجازاته العلمية والحضارية، وآراؤه فى الحياة والعلم والطب والجامعة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٥.

■ **الدكتور نجيب محفوظ باشا**

سيرة حياة الرائد الأول لطب النساء فى العالم العربى د. نجيب محفوظ (١٨٨٢ ـ ١٩٧٢)، الذى أضاف إلى العلم كثيراً من الإنجازات، وعرض لفلسفته وقدراته العلمية والبحثية والبيانية.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **الدكتور سليمان عزمى باشا**

سيرة حياة أول أطبائنا الباطنيين د. سليمان عزمى (١٨٨٢ ـ ١٩٦٦)، وتحليل لآرائه فى التعليم الطبى والجامعى، وفلسفته فى ربط الطب والتعليم الطبى بالحياة العامة.

الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة أعلام العرب، ١٩٨٦.

■ **عثمان محرم .. مهندس الحقبة الليبرالية المصرية (١٩٢٤ ـ ١٩٥٢)**

يستعرض المقومات العقلية والفكرية والمهنية والسياسية التى أسهمت فى صنع إنجازات المهندس الوطنى العبقرى عثمان محرم (١٨٨١ ـ ١٩٦٣)، ويعرض لسيرته المهنية والسياسية والوطنية، ويتدارس أوراق محنته فى أول عهد الثورة حين قدم للمحاكمة كنموذج لكباش الفداء التى أراد العهد الجديد بها أن يمحو من الأذهان مهابة وقيمة رموز العهد السابق. مكتبة مدبولى ، ٢٠٠٤ .

■ **سيد مرعى، شريك وشاهد على عصور الليبرالية والثورة والانفتاح (١٩٤٤ ـ ١٩٨١)**

سيرة حياة المهندس سيد مرعى (١٩١٤ ـ ١٩٩٢)، وإسهاماته السياسية والمهنية والزراعية فى ثلاثة عصور متتالية، وما تركته شخصيته من بصمات سياسية واجتماعية لاتزال آثارها باقية. مكتبة مدبولى، ١٩٩٩.

■ **إسماعيل صدقى باشا (١٨٧٥ ـ ١٩٥٠)**

سيرة حياة واحد من أهم الشخصيات التى مرت بتاريخ مصر الحديث وأثرت فى تاريخها القومى تأثيراً كبيراً بالإيجاب والسلب، وعرض لإنجازاته الاقتصادية والحضارية، ونقد لعقليته السياسية، وتقدير لأفكاره الاستراتيجية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ١٩٨٩.

■ **صانع النصر .. المشير أحمد إسماعيل (١٩١٧ ـ ١٩٧٤)**

سيرة حياة قائد عسكرى متميز أتيح له أن يتحقق على يديه أعظم نصر فى تاريخ مصر المعاصر، وملامح حياته وتكوين شخصيته وإنجازاته العسكرية على مدى حياته، ويناقش النقاط الخلافية فى تاريخه. دار جهاد ثلاث طبعات ، ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٥ .

■ **مايسترو العبور .. المشير أحمد إسماعيل**

سيرة موجزة لحياة قائد القوات العربية فى حرب ١٩٧٣.

■ **سماء العسكرية المصرية الشهيد عبدالمنعم رياض (١٩١٩ ـ ١٩٦٩)**

سيرة موجزة لحياة ألمع العسكريين العرب، وعرض سريع لأفكاره العسكرية والاستراتيجية وإسهاماته التاريخية. دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية**

إطلالة سريعة بترتيب موضوعى على شخصية توفيق الحكيم وحياته وآثاره الأدبية، من خلال رحلته فى الحياة، وتعريف موجز بآثاره الأدبية والفكرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، المكتبة الثقافية، ١٩٨٨.

■ **عبداللطيف البغدادى .. شهيد النزاهة الثورية**

سيرة حياة عبداللطيف البغدادى (١٩١٧ ـ ٢٠٠٠) أبرز رجال عهد الثورة فى المجال التنفيذى، وتتبع لفكره الإصلاحى والسياسى، وإنجازاته الحضارية، وإسهاماته فى الحياة البرلمانية، والوزارات المختلفة، والعلاقات العربية، ومحكمة الثورة، ورؤاه الاستراتيجية والسياسية والحربية.

دار الخيال، ٢٠٠٦.

■ **مصريون معاصرون**

مجموعة من كلمات ومقالات التأبين التى نشرت فى رثاء بعض المصريين المعاصرين أو إحياء ذكراهم، متضمنة أضواء موحية على بعض من الجوانب التى تبدت فى حياة وإنتاج هذه الشخصيات. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩١.

■ **كيف أصبحوا عظماء .. دراسات ورثاءات**

مجموعة منتقاة من الخطب والدراسات ألقيت فى تأبين بعض أعضاء مجمع اللغة العربية، وفى إحياء ذكرى رموز العلم والفكر والأدب فى احتفاليات الجمعية الخيرية الإسلامية بروادها.
الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٦ .

■ **يرحمهم الله : كلمات فى التأبين**

تراجم انطباعية تأبينية لكل من: بدرالدين أبوغازى، وصلاح عبدالصبور، ومحمد زكى عبدالقادر، ود. يحيى المشد، ومحمد فهمى عبداللطيف. دار الأطباء، ١٩٨٤.

■ **عاشق العلم أحمد مستجير**

سيرة حياة وفكر وإنجازات عالم الوراثة المصرى والمفكر والأديب والمترجم عميد علماء الزراعة فى عصره وعضو مجمع الخالدين.

■ **مصطفى مشرفة**

سلسلة قمم مصرية، السلسلة الثقافية لطلائع مصر، العدد ٧٣، المجلس القومى للشباب، القاهرة، فبراير ٢٠٠٧ .

■ **أستاذ الجيل فى السعودية: محمد طاهر الدباغ**

سيرة حياته وفكره التربوى وإنجازاته التربوية.

دراسات أدبية :

■ **فن كتابة التجربة الذاتية : مذكرات الهواة والمحترفين**

مجموعة من القضايا النقدية والفكرية، المرتبطة بفن كتابة التجربة الذاتية، وأساسياته، وأركانه، وتطوره، ومدى الحاجة إليه، والنقاط الخلافية فيه مع محاولة لتأصيل مذهب المؤلف فى نقد أدبيات التجارب الذاتية المنشورة فى صور مختلفة. دار الشروق، ١٩٩٧.

■ **فى ظلال السياسة.. نجيب محفوظ .. الروائى بين المثالية والواقع**

دراسة أدبية نقدية تحليلية تستعرض الفكر السياسى لنجيب محفوظ من خلال آرائه الصريحة المباشرة وأعماله الفنية ومذكراته المتعددة، وتثبت أنه فكر متقدم تناول القضايا الوطنية برؤية واضحة ونظر ثاقب وعبّر عن وعى سياسى من طراز متميز نجا من التقولب والأيدلوجيات واستشرف الأمل فى الآفاق الرحبة لمستقبل مزدهر لأمته ونجح فى لفت النظر إلى حقيقة الإيجابيات الليبرالية التى تحققت بفضل ثورة الشعب فى ١٩١٩. دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **على هوامش الأدب**

مجموعة من الدراسات والبحوث فى اللغة والأدب والنقد، تحاول فهم النقد ووظيفته وتصور علاقة الإبداع بالحياة، وتحلل الوسائل الكفيلة بالارتقاء بالذوق الأدبى العام، وتناقش كثيراً من القضايا والإشكاليات التى شغلت الحياة الثقافية، وترتاد آفاقاً جديدة فى درس علاقة اللغة بالحياة فى عصر المعلومات، وفى علاقة النقد بالذوق فى حقبة تتسم بتسارع الخطى والانكفاء على الذات معاً.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢.

■ **ثلاثية التاريخ والأدب والسياسة**

يناقش التأثيرات المتبادلة بين السياسة والتاريخ والأدب من خلال مجموعة من الفصول الموثقة (٢٣ فصلاً) تستعرض وقائع ثقافية وأدبية ونقدية محددة بعضها مشهور وبعضها لا يتمتع بالقدر الكافى من المعرفة به. دار جهاد، ٢٠٠٣.

■ **من بين سطور حياتنا الأدبية**

خمسة من الفصول التى يضمها كتاب ثلاثية التاريخ والأدب والسياسية نشرت مبكراً.

دار الأطباء ، ١٩٨٤.

■ **أدباء التنوير والتأريخ الإسلامى**

دراسة وتعريف وتقييم لجهد ثلاثة من أساتذة كلية الآداب فى الجامعة المصرية تصدوا لكتابة تاريخ الأمة الإسلامية، تلقى الدراسة الضوء على ملامح وسمات ومميزات هذه التجربة الرائدة التى أثمرت عملاً يجمع بين الأدب والتاريخ، وقد أصبح بمثابة المصدر المفضل لأهل التاريخ وتاريخ الأدب العربى، وكثير من الدراسات الإنسانية. الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **كلمات القرآن التى لا نستعملها**

دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية مع جداول تفصيلية كاملة بالكلمات ومعانيها والآيات التى وردت فيها من خلال تصنيف لغوى دقيق مع شرح موجز لفكرة اختلاف العينات اللفظية والعوامل المؤثرة فى هذا الاختلاف. صدر فى طبعتين : دار الأطباء، ١٩٨٤، دار الشروق، ١٩٩٧.

وجدانيات :

■ **أوراق القلب (رسائل وجدانية)**

يضم أكثر من خمس وسبعين رسالة من الرسائل القصيرة تعبر بطريقة مبتكرة عن أحوال وجدانية متباينة، وتعكس قدرة عالية على التصوير والتعبير والقبض على لحظات الخصوصية والتفرد والمفارقة فى العلاقات الإنسانية. الطبعة الأولى، دار الشروق، ١٩٩٤، الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

■ **أوهام الحب : دراسة فى عواطف الأنثى**

يتضمن خمسة وثلاثين فصلاً ترسم الملامح الجوهرية فى الطبائع الإنسانية المتباينة، وتقدم صوراً فنية ونفسية دقيقة أقرب فى طبيعتها إلى اللقطة اللحظية، كما تقدم استعراضاً دقيقاً لتقلبات الوجدان ودواعيها وتواعبها.

الطبعة الأولى، الكتاب الأول فى سلسلة كتاب الجمهورية الشهرى، أغسطس ١٩٩٩.

الطبعة الثانية، دار جهاد، ٢٠٠٥.

فى أدب الرحلات :

■ **رحلات شاب مسلم**

انطباعات ذاتية عن رحلات علمية مبكرة فى أمريكا وإيطاليا والهند وبريطانيا صورت فى دقة إبداعية بعض مشاعر الاحتكاك المباشر للمؤلف مع بيئات مختلفة وحضارات متعددة، كتبت بحرص شديد على الالتزام والدقة الموحية.

صدر فى ثلاث طبعات : دار الصحوة ١٩٨٧، دار الشروق ١٩٩٥، دار جهاد ٢٠٠٣.

■ **شمس الأصيل فى أمريكا**

يتميز بأسلوب مستحدث فى كتابة الرحلات لا يصف الطبيعة كما فعل السابقون، لكنه يحاول أن يصف الحضارة، وعلى حين أن وصف الطبيعة لا يستلزم إلا الحاسة الصادقة.. فإن وصف الحضارة يستلزم كذلك أقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة.

صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦، ودار جهاد، ٢٠٠٣.

مدارسات تاريخية ونقدية لكتب المذكرات:

■ **مذكرات وزراء الثورة**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات عشرة من وزراء ثورة يوليو ١٩٥٢ من ذوى الانتماءات المختلفة والأدوار المتباينة، فضلاً عن اختلاف آرائهم السياسية: كمال حسن على، وسيد مرعى، وعبدالجليل العمرى، وثروت عكاشة، وإسماعيل فهمى، وعثمان أحمد عثمان، وضياء داود، وأحمد خليفة، وعبدالوهاب البرلسى، وحسن أبوباشا. دار الشروق، ١٩٩٤.

■ **المرأة والحرية، مذكرات المرأة المصرية**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لقضية الحرية فى النظام الاجتماعى من خلال قراءة متأنية لمذكرات أربعة اتجاهات كاشفة عن دور المرأة المصرية فى الحياة العامة مشاركة للزوج فى مجده، أو ممارسة للسياسة، أو للوظيفة، أو عارضة لتجربة حياة متميزة: بنت الشاطئ، وجيهان السادات، ولطيفة الزيات، وزينب الغزالى، وإنجى أفلاطون، واعتدال ممتاز، وإقبال بركة، ونوال السعداوى، وسلوى العنانى، وثريا رشدى. دار الخيال، ٢٠٠٤.

■ **مذكرات المرأة المصرية**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «الثورة والحرية»، دار الشروق، ١٩٩٥.

■ **نحو حكم الفرد: مذكرات الضباط الأحرار**

تصوير دقيق للفترة الأولى من حكم ثورة يوليو (١٩٥٢ ـ ١٩٥٤) ومقدماتها وصراعاتها والتحولات التى انتهت إليها من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات كل من: اللواء محمد نجيب، وخالد محيى الدين، وعبدالمنعم عبدالرؤوف، وجمال منصور، ومحمد عبدالفتاح أبوالفضل، وحسين حمودة. دار الخيال، ٢٠٠٣.

■ **مذكرات الضباط الأحرار**

طبعة مختصرة ومبكرة من كتاب «نحو حكم الفرد» تضم أيضاً باباً عن مذكرات عبداللطيف البغدادى لم تتضمنه الطبعة الثانية. دار الشروق، ١٩٩٦.

■ **محاكمة ثورة يوليو: مذكرات رجال القانون والقضاء**

دراسة لعلاقة ثورة يوليو ١٩٥٢ بالقانون، وكيف أعلت الثورة من قيمة القانون فى بعض المواقف والصراعات التى نشبت بين تنظيمات الثورة وبين رجال القضاء الوطنى وذلك من خلال مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أعلام القانون والقضاء الذين مارسوا السياسة أو شاركوا فى الحياة العامة، وتشمل مذكرات كل من: محمد عصام الدين حسونة، وممتاز نصار، ومحمد عبدالسلام، وجمال العطيفى، ومحمد عبدالسلام الزيات، وماهر برسوم، وحسن عبدالغفار. دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **الأمن القومى لمصر، مذكرات قادة المخابرات والمباحث**

مرجع ضخم يتدارس قضايا الأمن القومى المصرى من خلال قضاياه الأساسية والممارسات التاريخية لقادة أجهزته، ويستعرض مذكرات الرؤساء الأربعة الأوائل لجهاز المخابرات العامة: صلاح نصر، ومحمد حافظ إسماعيل، وأمين هويدى، وأحمد كامل، واثنين من قادة أجهزة أمن الدولة: حسن طلعت، وفؤاد علام.

■ **من أجل السلام ، مذكرات رجال الدبلوماسية المصرية**

تحليل ومقارنة لرؤى مجموعة من أعلام الدبلوماسية المصرية الذين شغلوا مواقع مختلفة وعاصروا حروب مصر الدبلوماسية من أجل استعادة التراب الوطنى : أحمد عصمت عبدالمجيد، ومحمود رياض، ومحمد إبراهيم كامل، وحسين ذوالفقار صبرى، ومحمد عبدالوهاب العشماوى، وجمال بركات.

دار الخيال، ١٩٩٩.

■ **الطريق إلى النكسة ، مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧**

مجموعة فصول تاريخية نقدية تتناول استعراضاً ومدارسة لمذكرات قادة الصف الأول فى حرب يونيو ١٩٦٧ وتحليل لآرائهم ورؤاهم عن الأسباب التى صنعت الهزيمة أو أدت إليها، أو حالت دون السيطرة عليها فى الوقت المناسب، والدراسة بمثابة أوفى مرجع لمذكرات عبدالحميد الدغيدى، وعبدالمحسن كامل مرتجى، وأنور القاضى، وصلاح الحديدى، ومحمد فوزى. وبعض هذه المذكرات لم تنشر إلا فى صحف محدودة التوزيع. دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **النصر الوحيد : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٧٣**

مرجع أساسى لا غنى عنه لدراسة أمجد المعارك العربية التى خاضتها الأمة العربية فى ١٩٧٣، يتضمن الكتاب مدارسة ضخمة عن حقائق تلك الحرب ووقائعها من منظور وطنى وعلمى أمين مترفع عن الانحياز والغرض، ويقدم نظرات غير مسبوقة فى تحليل أحداث الحرب وتطورها ويستعرض بأمانة وتدقيق مذكرات خمسة من قادة حرب أكتوبر من مستويات مختلفة شاركوا بجهد وافر فى صياغة وصناعة النصر : محمد عبدالغنى الجمسى، وسعد الشاذلى، وعبدالمنعم خليل، ويوسف عفيفى، وعادل يسرى. دار الخيال، ٢٠٠٠ .

■ **فى أعقاب النكسة : مذكرات قادة العسكرية المصرية ١٩٦٧ ـ ١٩٧٢**

أوفى دراسة متاحة حتى الآن للفترة التى اصطلح على تسميتها بحرب الاستنزاف وهى فترة حافلة بالتناقضات فى الرأى والتصور والتكتيك ورواية الوقائع، ويقدم الكتاب تحقيقاً لكثير من هذه الجزئيات الخلافية من خلال مذكرات كل من: مدكور أبوالعز، ومحمد أحمد صادق، ومحمد صدقى محمود، ومحمد فوزى، والفريق صلاح الحديدى، والكتاب هو المصدر الوحيد لبعض هذه المذكرات التى لم تنشر إلا فى الصحف. دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **على مشارف الثورة : مذكرات وزراء نهاية الملكية ١٩٤٩ ـ ١٩٥٢**

دراسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات خمسة من وزراء السنوات الأخيرة فى عهد الملكية ينتمون إلى اتجاهات وتوجهات مختلفة، مع تحليل أدبى تاريخى لما تضمنته المذكرات من حقائق وروايات، وتشمل مذكرات كل من: أحمد مرتضى المراغى، وكريم ثابت، وإبراهيم فرج، وصليب سامى، وعبدالرحمن الرافعى. دار الخيال، ٢٠٠١ .

■ **فى خدمة السلطة .. مذكرات الصحفيين**

مدارسة أدبية نقدية تاريخية لعلاقات الصحافة بالسلطة على مدى عهد الثورة انتقالاً من عصر الليبرالية إلى التأميم والتنظيم إلى انفتاح محسوب، مع تحقيق لوقائع استغلال النفوذ ومصادرة الرأى: موسى صبرى، وأحمد بهاء الدين، وعبدالستار الطويلة، وفتحى غانم، وحلمى سلام، وجلال الدين الحمامصى. دار الخيال، ٢٠٠٢ .

■ **الثورة والإحباط : مذكرات الأدباء وأساتذة الأدب**

دراسة أدبية نقدية لمجموعة من المذكرات كتبها الأدباء وأساتذة الأدب وأضاءت علاقاتهم بالسياسة والحياة العامة وتفاعلات الأدب والكتابة فى عهد الثورة، وخبراتهم الفنية والأدبية، والعوامل التى شكلت وجدانهم، والتجارب التى عكستها آثارهم الأدبية، وتضم مذكرات الدكتورين: أحمد هيكل وعلى الحديدى، والأساتذة صالح مرسى، وفتحى أبوالفضل، وجليلة رضا، وعايدة الشريف، وأمانى فريد. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤.

■ **أقوى من السلطة : مذكرات أساتذة الطب**

استعراض للتاريخ الاجتماعى فى الحياة المصرية المعاصرة من خلال منظور طبى وتعليمى اصطبغ بالعلاقة المباشرة والتجربة الحية مع شخصيات السلطة المتعاقبة وتوجهاتها المتباينة على نحو ما تضمنه مذكرات الدكاترة: زكى سويدان، ومصطفى الرفاعى، ومصطفى الديوانى، ودمرداش أحمد، وأرنست سليمان شلبى. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٤ .

■ **عسكرة الحياة المدنية: مذكرات الضباط فى غير الحرب**

دراسة موسعة للتأثيرات العملية المباشرة وغير المباشرة لممارسة رجال القوات المسلحة للأدوار والمهام المدنية فى عهد الثورة فى مجالات الإدارة والوزارة والتنظيمات والسياسة والصحافة والقضاء والإعلام والدعوة والدبلوماسية والهندسة من خلال مدارسات مكثفة لمذكرات سمير فاضل، وأحمد طعيمة، وحلمى السعيد، ومصطفى بهجت بدوى، ورياض سامى. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٥.

■ **فى كواليس الملكية : مذكرات رجال الحاشية**

تحليل تاريخى واستعراض نقدى لمذكرات أربعة من الذين شغلوا مواقع مهمة فى القصور الحاكمة وقدر لهم أن يشهدوا بأعينهم ما يجرى فى الكواليس فى فترة حافلة بالأحداث، ثم قدرت لهم حياة ممتدة أتاحت لهم أن يربطوا بين ما رأوه وما عرفوه عن تاريخ الفترات والأحداث التى عاشوها عن قرب. مذكرات : حسن يوسف، ود. حسين حسنى، وصلاح الشاهد، والغريب الحسينى.
الطبعة الأولى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠٠٦ .

■ **فى رحاب العدالة : مذكرات المحامين**

مدارسة تاريخية نفسية لمذكرات أربعة من المحامين المصريين من ذوى الاتجاهات الفكرية المختلفة (عبدالفتاح حسن، وفتحى رضوان، ود. محمود كامل، ود. يوسف نحاس) عملوا بالسياسة، والحزبية، والاقتصاد، والصحافة، والأدب، وظلوا على ولائهم لمهنة المحاماة يستلهمون قيمها، ويستعينون بخبراتها، ويوظفون مهاراتها، وحين كتبوا مذكراتهم فإنهم اعتبروها أداء للمحاماة عن معتقداتهم، وتصرفاتهم، وسلوكهم، وانحيازاتهم.

■ **يساريون فى زمن اليمين: مذكرات قادة الفكر اليسارى المصرى**

تأملات فكرية فى مذكرات أدبية من قادة الفكر اليسارى المصرى فى ميادين مختلفة قدر لهم أن يعايشوا صعود الفكر اليسارى ثم معاناته فى زمن التحول إلى اليمين: د. مراد غالب، ود. حامد عمار، ود. رشدى سعيد، ود. عبدالعظيم أنيس.

■ **فى حدائق الجامعة: مذكرات خريجى جامعة القاهرة فى عقدها الأول (١٩٣٠-١٩٤٠)**
عبدالعزيز كامل، وإبراهيم عبده، وشكرى عياد، وسعيدجودة السحار
الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٧ .

فى الفكر التربوى:

■ **آراء حرة فى التربية والتعليم**
يتضمن هذا الكتاب مجموعة من الفصول عرض فيها المؤلف آراء حرة ومدروسة فى قضايا التربية والتعليم حاول بها أن يفتح الأبواب أمام الفهم المستقيم لهذه القضايا، وأن يقدم الحلول الأكثر مناسبة والأجدى فائدة لمشكلات مزمنة، وأن يؤصل للفهم التربوى المعاصر من خلال فكر مفتوح لا يخضع للأهواء الوقتية. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١. طبعة خاصة ، مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

■ **مستقبل الجامعة المصرية**
مجموعة مختارة من الأفكار والتصورات والمقترحات التى نشرها المؤلف فى الصحافة المصرية على مدى تسع سنوات مستهدفاً تجديد الرؤى فى إصلاح الجامعة على أسس علمية دون طفرة، ومعبراً عن رؤية علمية وعملية مختلفة عن تلك المطروحة على الساحة.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩ .

■ **تكوين العقل العربى .. مذكرات المفكرين والتربويين**
مدارسة أدبية نقدية تاريخية لمذكرات مجموعة من أبرز المفكرين والتربويين الذين أسهموا فى تكوين العقل العربى، وعرض لرؤاهم التربوية والفكرية ولوجهات نظرهم فى الحياة العقلية فى مصر المعاصرة من خلال تحليل انطباعاتهم ورؤاهم فيما يتعلق بتكوين عقلياتهم وعقلية تلاميذهم وأساتذتهم ومعاصريهم. وتشمل المدارسة مذكرات: شوقى ضيف، وعبدالرحمن بدوى، ومحمد عبدالله عنان، ومحمد على العريان، وأحمد عبدالسلام الكردانى، ونادية رضوان. دار الخيال، ٢٠٠٢.

■ **بناء الجامعات والأكاديميات: مذكرات رواد العلوم والفنون**
تحليل تاريخى وتوثيق تربوى للجانب المؤسسى فى أكاديميات التعليم المتخصص فى الشرطة والفنون والجامعات الإقليمية والاتحادات العلمية عبر مدارسة لمذكرات أربعة من الأكاديميين المؤسسين: سليمان حزين، وسمحة الخولى، وعبدالحليم منتصر، وعبدالكريم درويش. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦.

فى الفكر التنموى:

■ **التنمية الممكنة : أفكار لمصر من أجل الازدهار**
مجموعة مختارة ومنتقاة من المقالات والدراسات التى كتبها ونشرها المؤلف على مدى سبع سنوات (١٩٩٤ ـ ٢٠٠١) طارحاً فيها أسلوبًا جديدًا لمعالجة قضايا الوطن الاقتصادية والاجتماعية، معتمداً على منهج موظف للمعلومات من أجل الانطلاق بفكر رحب يفيد من تجارب الحضارات السابقة والنظم السياسية المعاصرة، وتتناول الأفكار مناحى متعددة فى حياة الوطن ومستقبله واقتصادياته ويجمع هذه الأفكار أنها صادرة عن رؤية عملية قابلة للتنفيذ دون أن تتطلب موارد جديدة، وهو ما يدفع إلى المطالبة بالإسراع فى الأخذ بها من أجل ما ننشده من ازدهار فى مستقبل الوطن.
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **مستقبلنا فى مصر: دراسات فى الإعلام والبيئة والتنمية**

مقالات ودراسات مستفيضة لبعض مشكلات الحياة العامة فى مصر، تقدم رؤى مختلفة الطابع تصدر عن فهم جديد لطبيعة الحضارة المعاصرة بعيداً عن الآثار الكلاسيكية للأفكار الأيديولوجية التى صبغت بعض مناحى الحياة العامة فى مصر بما يستحسن الخلاص منه فى ظل فكر إنسانى علمى جديد يعتمد على التعويل على العناصر الإيجابية فى الإنسان، وعلى إعلاء قيمة الحرية، والتمكين للقيم الفاضلة فى حياة المجتمع، وفهم المشكلات فى إطارها الخاص بعيداً عن التعميم، وعلى استنطاق الإحصاءات بالبعد التنموى الذكى والمحافظ فى الوقت ذاته على البيئة. الطبعة الثانية، دار الشروق، ١٩٩٧ .

■ **الصحة والطب والعلاج فى مصر**

مجموعة من المقالات والفصول والدراسات تستعرض جوهر العلاقة بين الطب والصحة والمجتمع، وتقدم لمحات عن الدين والمرض، وعن مستقبل الطب الإسلامى، وعن طب الطوارئ. كما تقدم أفكاراً جديدة فى تطوير التعليم الطبى وتنظيم المؤسسات الطبية. وتتضمن الطبعة الثانية دراسات موسعة تستهدف تطوير الخدمات الصحية بإعادة استخدام الموارد المتاحة من خلال رؤى عصرية لسياسات العلاج والصحة. الطبعة الأولى، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧ . الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٥ .

■ **القاهرة تبحث عن مستقبلها**

مجموعة من المقالات والفصول استهدفت تغيير وجه القاهرة من خلال أفكار علمية وعملية تستند إلى تحليل المعلومات وتوظيفها، والقدرة على تصور البدائل وطرح الحلول انطلاقاً من رؤية رحبة الأفق، وقد تحقق بعض هذه الأفكار، ونتمنى أن يتحقق البعض الآخر لتصبح عاصمتنا فى المكانة اللائقة بها بين بقاع الدنيا. دار المعارف، ٢٠٠٠.

فى الفكر السياسى:

■ **الفلسطينيون ينتصرون أخيراً .. دراسات فى التنبؤ السياسى**

تقدم مجموعة المقالات والفصول التى يتضمنها الكتاب أفكار المؤلف وتصوراته لمسار الصراع العربى - الإسرائيلى وقضية فلسطين، وهجرة اليهود العرب إلى فلسطين، ومعضلات السياسات الفلسطينية، وأخطاء السياسات العربية فى حقب متتالية، وحقيقة العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والحركة الصهيونية وإسرائيل. دار جهاد، ٢٠٠٢ .

■ **المسلمون والأمريكان فى عصر جديد**

مجموعة من الفصول والمقالات تتميز بجسارة فكرية وعقلية كفيلة بالنفاذ إلى جوهر المشكلات والتوجهات فى السياسة العالمية، ويجاهر المؤلف بأن الدعوة إلى الإسلام أجدى بكثير من الدفاع عنه. كما يستعرض مبرراته للتنبؤ بأن أمريكا قد تعتنق الإسلام، ويلقى الضوء على الدور الذى يلعبه الدين فى الانتخابات الأمريكية وفى غيرها من مواقع الأحداث فى عصر العولمة. دار جهاد، ٢٠٠٢ .

موسوعة تاريخ النظام السياسى المصرى المعاصر:

■ **النخبة المصرية الحاكمة (١٩٥٢ - ٢٠٠٠)**

مجموعة من الدراسات البيوجرافية التى يمكن وصفها بلغة البحث العلمى بأنها أصيلة وغير مسبوقة، ومجموعة من المقالات (المستندة إلى دراسات) تتناول بالبحث والتعليق تكوين شخصيات النخبة الحاكمة فى النصف الثانى من القرن العشرين وعوامل صعود هذه الشخصيات إلى مواقع المسئولية. مكتبة مدبولى، ٢٠٠١ .

■ **قادة الشرطة فى السياسة المصرية (١٩٥٢ - ٢٠٠٠) دراسة تحليلية وموسوعة شخصيات**

دراسة عميقة لدور جهاز مهنى حيوى فى الحياة السياسية فى النصف الثانى من القرن العشرين، وتعريف بيوجرافى بستين شخصية شرطية مع ذكر أدوارها التاريخية وذلك من خلال قراءات مكثفة، ومقابلات منتقاة، ودراسات عميقة. مكتبة مدبولى، ٢٠٠٢ .

■ **البنيان الوزارى فى مصر (١٨٧٨ - ٢٠٠٠)**

المرجع الأول والأوفى فى مجاله، وهو دراسة تاريخية وفهارس كمية وتفصيلية لإنشاء وإلغاء وإدماج الوزارات والقطاعات الوزارية وتبعيات المصالح والهيئات للوزارات المختلفة، ودراسة لتوزيع المسئوليات الوزارية والوزراء الذين تعاقبوا على كل وزارة.

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عن دار الشروق، وركزت على فترة الثورة.

الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠ . طبعة خاصة : مكتبة الأسرة ، ٢٠٠٥ .

■ **الوزراء ورؤساؤهم ونواب رؤسائهم ونوابهم ، تشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم**

توثيق تاريخ الوزارات المصرية وتشكيلاتها منذ قيام الثورة ١٩٥٢، من خلال ثلاثة أبواب، الأول: ترتيبى، والثانى: زمنى، والثالث: شخصى، ويقدم معلومات عن الوزراء ورؤسائهم ونواب رؤسائهم ونوابهم وتشكيلاتهم وترتيبهم ومسئولياتهم. صدر فى طبعتين عن دار الشروق، ١٩٩٦ ، ١٩٩٧ .

■ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة (١٩٥٢ - ١٩٨١)**

طبعة مبكرة ومختصرة من كتاب الوزراء، تقف عند نهاية حكم الرئيس السادات، وتقدم فقط بعض ما شمله البابان الثانى والثالث من كتاب الوزراء. الهيئة العامة للاستعلامات، ١٩٨٦ .

■ **المحافظون**

دراسة تأسيسية تشمل قوائم كاملة وترتيبية وفهارس تفصيلية وأبجدية وزمنية ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء نظام الإدارة المحلية (١٩٦٠) وحتى نهاية القرن العشرين. مع الإشارة إلى خلفياتهم المهنية وعلاقتهم بالمناصب الوزارية والإدارية.

صدرت الطبعة الأولى عن دار الشروق، ١٩٩٦ . الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١.

■ **كيف أصبحوا وزراء .. دراسة فى صناعة القرار السياسى**

فصول بيوجرافية وتاريخية فى إطار دراسة تحليلية ونقدية لصناعة القرار السياسى فى مصر، وهى دراسة لا تخلو من استرجاع ومن إحصاء ومن استقراء ومن استنباط، ومن تحقيق للروايات ومن عرض للرأى والرأى الآخر، ومن وضع المقارنات على هيئة جداول وأرقام. دار الخيال، ٢٠٠٢.

أعمال موسوعية :

■ **القاموس الطبى نوبل فى ٣ أجزاء (بالاشتراك مع أ. د. محمد عبداللطيف)**

قاموس طبى ضخم يحوى ستين ألف مصطلح يسهل من خلاله الوصول إلى المصطلح المقابل من خلال أى لغة من لغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ويشمل مسارد كاملة لكافة المصطلحات الطبية الواردة فى اللغات. دار الكتاب المصرى، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، القاهرة، ١٩٩٨.

■ **دليل الخبرات الطبية القومية وتاريخ التعليم الطبى الحديث**

نبذات وافية ومعلومات كاملة تاريخية عن تطور مؤسسات وهيئات التعليم الطبى المصرية فى الجامعات ومراكز البحوث ووزارة الصحة. الجمعية المصرية للأطباء الشبان، ١٩٨٧.

في طب القلب:

■ **أمراض القلب الخلقية الصمامية**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، يستعرض الخلقية الصمامية وأسبابها وطرائق تشخيصها وعلاجها وجراحاتها ومآلها. دار المعارف، ٢٠٠١ .

■ **أمراض القلب الخلقية: الثقوب والتحويلات**

كتاب طبى مرجعى يصلح أيضاً للثقافة العامة، عرض فيه المؤلف الأمراض الناشئة عن وجود ثقوب أو تحويلات فى تشريح القلب، مع تقديم صورة وافية عنها والاستعانة بكل ما يمكن أن يصور طبيعة المرض وحقيقته وسماته والطرق المتاحة لتشخيصه وعلاجه وجراحاته. دار المعارف، ٢٠٠٢ .

تحقيق:

■ **يوميات على مصطفى مشرفة .. يناير ١٩١٨ - يوليو ١٩١٨**

تحقيق دقيق لمخطوطة من اليوميات التى وجدت فى آثار العالم المصرى الكبير عن الشهور الأولى من فترة بعثته إلى بريطانيا وما حفلت به مشاعره من حس وطنى ودينى، وتفاعل مع صورة مختلفة من الحياة، وحوارات عقيدية وفكرية، وخبرات علمية وحضرية وثقافية مكثفة. مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣.

ببليوجرافيات:

■ **مجلة الثقافة (١٩٣٩ - ١٩٥٢) تعريف وفهرسة وتوثيق**

سيرة حياة مجلة رائدة، ودراسة صحفية وأدبية تحليلية للمجلة الشهيرة التى أصدرتها لجنة التأليف والترجمة والنشر بصفة أسبوعية، وتشمل فهرسة كاملة للأعداد الـ ٧٣٣، وكشافات للموضوعات التى أسهم بها الكتاب الذين بلغ عددهم أكثر من ألف، مع تراجم وافية لحوالى ١٣٠ كاتباً بارزاً واظبوا على الكتابة للمجلة، وتعد بعض النبذات البيوجرافية المقدمة عن هؤلاء بمثابة النبذات التعريفية الوحيدة المتاحة عنهم. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣.

■ **الببليوجرافيا القومية للطب المصرى (٨ أجزاء)**

ببليوجرافيا كاملة للبحوث الطبية المنشورة فى مائة وخمسين دورية طبية مصرية (١٩٨٥ - ١٩٨٨)، مع معلومات ببليوجرافية كاملة وملخصات وافية للبحوث، صدر فى ثمانية أجزاء نشرتها الأكاديمية الطبية العسكرية على مدى الفترة من ١٩٨٨ وحتى ١٩٩١.

الفهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس
WWW. egyptianbook. org. eg
E - mail : info @egyptianbook.org. eg